المادة : تاريخ الأندلس

أهداف دراسة المادة :

١. اكتساب المعرفة والعلم عن تاريخ المسلمين السياسي والحضاري في بلاد الأندلس.

٢. استنتاج أثر الفتوحات الإسلامية على بلاد أوروبا في كافة المجالات الحضارية .

٣. قراءة سير الحكام العظماء والقواد الفاتحين ودورهم في الجهاد الإسلامي ضد أعدائهم في بلاد الأندلس .

٤. معرفة دور المسلمين في مختلف الجوانب العلمية والفكرية ومدى اسهامهم في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا .

٥. التتبع التاريخي للحكومات الإسلامية والتعرف عليها بالتعاقب في حكم بلاد الأندلس .

عناصر المادة :

١. الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس .

٢. عهد الولاة ودورهم في الاستقرار والجهاد في أوروبا.

٣. عهد الإمارة والتأسيس لبني أمية في الأندلس.

٤. عهد الخلافة والاستقلال في بلاد الأندلس.

٥. عصر ملوك الطوائف وعلاقاتهم بجيرانهم النصارى .

٦. عصر المرابطين والقضاء على حكام الطوائف في بلاد الأندلس.

٧. عصر الموحدين ودورهم في الفكر والحضارة الأندلسية .

٨. عصر مملكة غرناطة آخر الممالك الإسلامية في بلاد الأندلس .

ملحوظة / مذكرة المادة توجد في مكتبة القبلة بحي العوالي

كان النصر لابغيرها . وهي وحدها التي تستطيع فعل ذلك . فبدا القوط ضعافاً أمام هذا النوع من الجيش الفريد .

* * *

تذكر بعض الروايات فضل الملك لذريق وحسن سيرته ، وكذا الملك السابق غيطشة[1] . المعروف أن لُذْرِيق كان حاكماً شجاعاًومحارباً قوياً وقائداً مجرباً ، إذ « كان شجاعاً قد بَعُدَ صوته وطال ذكره في النصرانية . »[2] لكن من السهل أن يرى الباحث عدم قدرة مثل هذه السلطة ، ولا غيرها ، على الوقوف أمام أناس أخلصوا لعقيدتهم الرفيعة وتحمسوا لها ، فلا يهابون أحداً ولا يبخلون بشيء من أجلها . هؤلاء هم الجيش الإسلامي وقيادته ، الذين قَدِموا لفتح الأندلس[3] . وتاريخ الجيش الإسلامي — فيما تم قبل وبعد من فتوح — مليء بأنقى الصفحات وأشدها نصاعة وأقواها ضياء .

ثالثاً : نظرة في جغرافية شبه الجزيرة الايبيريّة

تقع شبه الجزيرة الإيبيريّة (الأندلس) في الجنوب الغربي من القارة الأوربية . تفصلها من الشمال ، عن جنوب فرنسا ، جبال البُرْت ـ أو البُرْتات Pyrenees ، وتعرف بالاسبانية Pirineos[4] — حيث تتصل الأندلس بالأرض الكبيرة . يفصلها من الجنوب —

(١) دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٣٢ .

(٢) صلة السمط وسمة المرط ، ابن الشباط ، نشر سوية مع « الاكتفاء » لابن الكردبوس بعنوان « تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط » (نصان جديدان) ، ١٣١ . كذلك : نفح الطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني ، ١/٢٥٠ ؛ فجر الأندلس ، ١٧ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٣٤ ، ٤١ ؛ أخبار مجموعة ، ٥ .

(٣) انظر : فجر الأندلس ، ٦٨ ، ٧٣ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، السيد عبد العزيز سالم ، ٧١ .

(٤) تسمى هذه الجبال أحياناً « البرانس » . الظاهر أنها تسمية خاطئة ، لأن جبال البرانس تقع شمال قرطبة وتعرف أيضاً بجبال المدن (Sierra de Almadén) . انظر : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٨٥ ، ١٢٩ ؛ الروض المعطار ، ١٤٢ ؛ نفح الطيب ، ١/١٤٣ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٥٣ ، ٨٢ ؛ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، حسين مؤنس ، ٢٦١ ، ٤٨١ ؛ الخريطة رقم : (١) ، من هذا الكتاب ص ٢٤ — ٢٥ .

حدوداً للقارة الأوربية ، عن إفريقية – مضيقُ جبل طارق الذي يبلغ عرْضُه من الشرق إلى الغرب ١٣ – ٣٧ كم[١] .

تقع على المضيق بعضُ مدن المغرب الأقصى في الشمال الافريقي ويصل المضيق بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب الأقصى – وما بعده – براً ، كما يصل بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط بحراً .

تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسي عند خليج بسْقايَه (Biscay) ، الذي عليه تقع مدينة خيخون (Gijon) . تقع سواحلها الغربية على المحيط الأطلسي ، الذي يعرف عند بعض الكتاب المسلمين : البحر الأخضر[٢] أو البحر المحيط[٣] أو البحر المحيط الرومي[٤] أو البحر المظلم[٥] أو بحر الظلمات[٦] ، أو بحر الظلمة[٧] ، أو اقيانس[٨] . تقع شواطؤها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط ، ويسمى أيضاً : البحر الرومي[٩] أو البحر الشامي[١٠] ، أو بحر تيران[١١] .

ولا بدّ من إيضاح بعض المصطلحات قبل المضي في الحديث عن التاريخ الأندلسي :

---

(١) انظر كذلك : الاستبصار في عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف ، ١٣٨ .

(٢) الروض المعطار ، ٢٨ ؛ نفح الطيب ، ٢٧٦/١ ، ١٨٩/٣ (كأنه يطلقه على خليج بسقايه = بسكاي) .

(٣) جغرافية الأندلس وأوربا ، البكري ، ٦٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ؛ الروض المعطار ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٣ ؛ المقدمة لابن خلدون ، ٤٢٧/١ ؛ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ١٦٥ (نص ابن الشباط) ؛ نفح الطيب ، ١٣٧/١ .

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، ١٣/١/١ .

(٥) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ١٦٩ ؛ الروض ، ٢ .

(٦) الروض ، ٢٨ .

(٧) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٢٧ .

(٨) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ٢٨ .

(٩) الروض ، ٢٨ ، ٦٢ ، ٨٣ ؛ المقدمة ، ٤٢٧/١ ، ٤٦٤ ؛ نفح الطيب ، ١٣٢/١ .

(١٠) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٦٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ الروض ، ٢ ، ٢٦ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٢٨ (نص ابن الشباط) ؛ نفح ، ١٣٥/١ .

(١١) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٦٨ ؛ نفح الطيب ، ١٣١/١ .

١ – مصطلح الأندلس ومدلوله

أصل مصطلح **الأندلس** مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني . احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي ، وسميت باسمها : فاندلسيا (Vandalusia) ، أي : بلاد الوندال . ثم نُطقت بالعربية : **الأندلس** . أما مدلول هذا المصطلح فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون أحياناً على كل شبه الجزيرة الإيبيريّة (إسبانيا والبرتغال اليوم) ، والتي يسمونها أيضاً الجزيرة الأندلسية . ثم استُعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنهـا المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الإيبيريّة[1] .

حدود الأندلس أيام الخلافة الأندلسية – مثلاً – تشمل كل البرتغال تقريباً وأكثر إسبانيا الحالية . كانت الأندلس تمتد جنوب الخط الافتراضي الذي يصل بين نهر دُوَيْرُهْ (Duero) في الغرب حتى بَرْشَلُونَة (Barcelona) في الشرق ، مع ارتفاع إلى الأعلى في الوسط . يفصل هذا الخط بين إسبانيا النصرانية في الشمال وبين الأندلس (إسبانيا الإسلامية) في جنوبه .

حين يُذكر هنا اصطلاح الأندلس يُقصد به أيضاً – زيادة على ما سبق – المنطقة الإسلامية التي شَمَلها الإسلام ، سلطاناً وسكاناً ، من شبه الجزيرة الإيبيريّة ، وعلى الأغلب في شمولها أيام الخلافة الأندلسية . أو شاملة لكل شبه الجزيرة ، كما تبين آنفاً .

تطلق اليوم كلمة أَنْدَلُشيَا (Andalucia) بالإسبانية على المنطقة الجنوبية من إسبانيا . وهو اصطلاح إداري لا يمثل المعنى التاريخي المُبيَّن لمصطلح **الأندلس** .

بعض أسماء الأمكنة والمدن في شبه الجزيرة الإيبيرية ذات أصل أندلسي ، منقول إلى الإسبانية ، أو أنه إسباني نقل إلى العربية . فعدد من الأسماء يتسم بطابعه الأندلسي . وكل اسم في الإسبانية – حالياً – مسبوق بـ الـ التعريف دليل على أندلسيته أو تأثره .

---

(١) راجع : جغرافية الأندلس ، ٥٩ ؛ الروض ، ٤–١٩،٦ ؛ نفح ، ١/١٣٣ – ١٣٥ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٢٧ ، ٥٠ ؛ أندلسيات ، ١/١١ ؛

Andalusian diplomatic relations with Western Europe, El-Hajji, 32 - 3.

يوجد في شبه الجزيرة الإيبيريّة الكثير من المناطق الخصبة والأنهار ، كما أن فيها المرتفعات والجبال الصخرية العالية . وقد جمعت الأندلس خواصّ كثيرة ، أوردها عدد من الجغرافيين الأندلسيين(١) .

رابعًا : العهود التي مرّت بها الأندلس

استقر حكم الاسلام في شبه الجزير الإيبيريّة ثمانية قرون ، منذ فتحها ـ بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر وآخرين ـ سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) حتى سقوط غَرْناطة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) . ومرّت الأندلس في هذه القرون بعدة عهود ، تقلّبت خلالها بين الضعف والقوة وبين النصر والهزيمة . ويمكن إجمال هذه العهود ، التي كان لكل منها طابَع مميّز ، على النحو التالي :

أولاً : عهد الفتح الذي استمر حوالي أربع سنوات : ٩٢ ـ ٩٥ هـ (٧١١ ـ ٧١٤ م) .

ثانياً : عهد الولاة : ٩٥ ـ ١٣٨ هـ (٧١٤ ـ ٧٥٥م) . ويعتبر بعضُ المؤرخين مدة الفتح داخلة في هذا العهد ، الذي ينتهي بمجيء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلسْ سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م) . وقد حكم الأندلس في هذا العهد ـ الذي استمر حوالي ٤٢ سنة ـ عشرون والياً تقريباً ، كانوا تابعين للخلافة في دمشق مباشرة . أو بواسطة ولاية الشمال الإفريقي (إفريقية والمغرب) .

ثالثاً : عهد الإمارة : ١٣٨ ـ ٣١٦ هـ (٧٥٥ ـ ٩٢٩م) . ويبدأ منذ مجيء الداخل إلى الأندلس حتى إعلان الخلافة من قِبَل عبد الرحمن الناصر (الثالث) سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، وقد أسس الداخل إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية ، استمرت مئة وثمان وسبعين سنة .

رابعاً : عهد الخلافة : ٣١٦ ـ ٤٠٠ هـ (٩٢٩ ـ ١٠٠٩ م) . ويبدأ منذ إعلان

---

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوربا ، ٥٧ ـ ٧٠ ؛ نفح ، ١/١٢٦، ١٤٠ ـ ١٤٤، ١٦٥ ـ ١٦٧ .

الخلافة حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ، أو حتى الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) . فكان عمر الخلافة حوالي القرن .

خامساً : عهد الطوائف : ٤٠٠ – ٤٨٤ هـ (١٠٠٩ – ١٠٩١ م) . وهو عهد دول (أو ملوك) الطوائف ، الذي سبقته أعوام من الفوضى . وقد استمر هذا العهد حوالي ثلاثة أرباع القرن ، حتى دخول الأندلس سلطان المرابطين .

سادساً : عهد المرابطين والموحدين : ٤٨٤ – ٦٢٠ هـ (١٠٩١ – ١٢٢٣ م) ، حيث دخلت الأندلس أولا في دولة المرابطين التي تنتهي في حوالي ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، أي لأقل من نصف قرن . وبعد مدة تنضوي الأندلس لحكم الموحدين (قرابة القرن) ، الذي ينتهي في حوالي سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . ويمكن اعتبارهما عهدين مستقلين .

سابعاً : مملكة غرناطة : ٦٢٠ – ٨٩٧ هـ (١٢٢٣ – ١٤٩٢ م) ، حيث تقوم دولة بني الأحمر وتستمر ما يزيد على قرنين ونصف ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . ويمثل سقوطها نهاية الحكم الاسلامي للأندلس وذهاب سلطان المسلمين السياسي منها . وتبقى ملايين عديدة من المسلمين عشرات السنوات ، لكنهم تحمّلوا الكثير من الاضطهاد وعمليات الإفناء ، التي أتت عليهم ، قتلاً وتشريداً وإذابة . وكادت تأتي على كل ما خلّفه المسلمون – بأجناسهم – من إنتاج إنساني رفيع كريم شمل مختلف الميادين .

الفصل الثامن
فتح الأندلس

كان العرب يدركون ، لدى استتمام فتح المغرب الصلة الوثيقة بين هذه البلاد والأندلس ، فلا يبدو الاختلاف كبيراً بين جبال الأطلس فى الريف المغربى وبين جبال الثلج Sierra Nevada فى إسبانيا ، فهما سلسلة واحدة ، وجبال الثلج نفسها ، ترى من عدوة البحر ، والفاصل بين العدوتين يسمى المجاز أو الزقاق ، مما يدل على قرب المسافة . وفى كتاب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦/ ٧٠٥ ـ ٩٦/ ٧١٥) حين وجده متخوفًا من عبوره إلى الأندلس : « إنه ليس ببحر ، وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر » .

بوجه عام فإن عدوتى المضيق اجتمعتا لدى سلطة واحدة فى معظم عصور التاريخ المنظور ، ففى العصر الرومانى كانت ولاية مرطانية الطنجية Mauritania Tingtana تضم سواحل العدوتين ، وفى الصراع بين البيزنطيين والقوط ، استولى هؤلاء على سبتة ، وإن كان لعهد قصير ، عادت بعده للروم ، ومن المؤرخين العرب من يضيف إلى يليان Julianus صاحب سبتة على العدوة المغربية مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras على العدوة الأندلسية ، وعندما اشتد ساعد الأمويين ، بعد إعلان الخلافة ، استولى الناصر على العدوة المغربية ، وأطاعه بنو إدريس وملوك زناتة ، وفيما بعد سقطت عدة من معاقل المغرب وثغورها البحرية فى أيدى النصارى قبل سقوط غرناطة Granada نفسها .

تذهب الروايات العربية إلى قيام يليان صاحب سبتة بدور رئيسى فى حفز العرب إلى غزو الأندلس ، وكان يليان هذا مخاصمًا لرذريق Rodrigo الذى

اغتصب عرش القوط وقتل الملك غطيشة Witiza وأساء إلى شخص يليان ، باعتدائه على ابنته ، كما تذهب أيضاً إلى أن أبناء غيطشة قاموا بالدور نفسه مع العرب ، حتى ينتقموا من قاتل أبيهم .

ربما كانت هذه الروايات صحيحةً ، لكنها لم تكن العامل الأهم لغزو العرب بلاد الأندلس ، والأرجح إنها - فى حال صحتها - كانت عاملاً مساعداً فحسب .

على أية حال فإن موسى ، استجاب لنصيحة الوليد بن عبد الملك ، فأرسل فى سنة ٩١/ ٧١٠ بعثًا استطلاعيًا من البربر ، يقوده طريف بن ملوك ، وقد ضم هذا البعث أربعمائة راجل ومائة فارس . ونزل هؤلاء بقرب من الموقع الذى ستقوم عليه فيما بعد جزيرة طريف Tarifa ، واتصلوا ببعض أصحاب يليان وأبناء غيطشة ، وأصابوا بعض المغانم ثم عادوا .

كان للنجاح الذى أحرزه طريف ورجاله فى هذه الغزوة أثره فى أن يجهز موسى بن نصير حملةً كبيرةً لفتح الأندلس ، يقودها مولاه طارق بن زياد .

ينتمى طارق إلى قبيلة نفزة من البربر ، وقد يبدو غريبًا ، أن يعهد موسى بهذه المهمة الجليلة إلى قائد من الغير العرب ، صحبة جيش من الغير العرب . والحقيقة إن البربر كانوا قد قطعوا شوطًا واسعًا فى الاستعراب ، كما إن بعضهم صار قديم عهد بالإسلام ، لذلك لم يجد موسى غضاضةً من أن يوجههم لفتح الأندلس ، وغير خاف أن البربر بحكم موقع بلادهم وتاريخها ، كانوا أكثر خبرةً بالجزيرة الأندلسية من العرب ، ومع ذلك فقد ضم الجيش الذى بلغ عدده سبعة آلاف عدداً غير قليل من فرسان العرب وأنجادهم .

عبر المسلمون المضيق فى رجب من سنة ٩٢/ إبريل ٧١١ فى بعض سفنهم ، وقيل بل سفن يليان ، ونزلوا بالجبل الذى واجههم وكان يدعى كلبه

Calpe فدعاه المسلمون جبل طارق ، واستولوا على الجزيرة الخضراء ، وبذا أصبح المضيق فى أيديهم . ووقعت اشتباكات بين المسلمين وبين بعض أصحاب رذريق ، وكان إذ ذاك ببنبلونة Pamplona فى الشمال يجالد البَشْكُنس Vascos فاتخذ طريقه بسرعة إلى قرطبة Córdoba ، واستعد لقتال المسلمين .

تقدم رذريق من قرطبة فى أربعين ألفاً ، وعسكر عند مدينة شَذونة Medina Sidonia ، فأرسل طارق بخبره إلى موسى ، فأمده بخمسة آلاف من البربر .

إلتقى المسلمون والقوط بموضع من أحواز شذونة ، عرف بوادى لَكُّه Guadalete ، وتذهب الرواية العربية إلى إن طارقاً ألقى فى أصحابه قبل أن تبدأ المعركة خطبته الشهيرة وأولها : « أيها الناس !! أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » .

يراودنا الشك فى صحة هذه الخطبة ـ التى ربما وضعت فى وقت لاحق ـ فطارق ـ رغماً عن استعرابه ـ يبعد أن كان طلقاً فى العربية ، كما إن الخطبة ترتبط بما يقال عن حرقه لسفن المسلمين ، كى يحفزهم إلى القتال ، وواقعة الحرق هذه لم يثبت بعد إنها واقعة صحيحة .

على أية حال فقد بدأت المعركة فى ٢٨ من رمضان ١٩/٩٢ من يوليو ٧١١ ، ودامت ثمانية أيام ، وكانت حامية الوطيس ، إلى أن رجحت كفة المسلمين ، بعد أن انحاز إليهم عدد من المخاصمين لرذريق ، وتخلى عنه فرسانه ومالوا إلى المسلمين . ولما تبدت طلائع الهزيمة لرذريق أسرع إلى جواده الأشهب فامتطاه ، وغادر ساحة القتال ، ويقال إن طارقاً اتبعه ، وتمكن منه واحتز رأسه ، ويقال إنه غرق فى النهر المجاور ، ويذهب البعض إلى أنه لم يقتل أو يغرق ، إنما ارتد مع بعض أتباعه ، وصمد لهجمات العرب المتكررة ، حتى

لقى حتفه بعد سنتين ...

بعد ذلك بزمان طويل عثر فى لجدانية بمقبرة إحدى الكنائس الكبرى على شاهد قبر ، مكتوب عليه « هنا يرقد رذريق ملك القوط » Hic Rquiescit Rudericus Rex Gothorum .

أسرعت فلول القوط ـ وقد هزتها وطأة الهزيمة إلى ـ إستجّة Ecija وجد طارق فى إثرها ، ولقى منهم مقاومةً عنيفة ، إلى أن تمكن من الاستيلاء على المدينة . ولما استقر له الأمر بها ، أشار عليه يليان : « قد فرغت بالأندلس ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى فرق معهم جيوشك ، وخذ أنت إلى طليطلة » ، ففرق طارق جيوشه من إستجة ، وسار أحدها إلى قرطبة ، وسار هو ومعظم الناس يريد طليطلة .

في الطريق إلى عاصمة القوط ، إنضم إلى طارق عدد كبير من أهل البلاد الذين كانوا ينقمون على القوط ، كما انضم إليه عدد آخر كبير من اليهود الذين صاروا أدلاءً للمسلمين ، وقد أفاد طارق بهم فائدةً كبيرةً ، وصارت عادة المسلمين في كل مدينة يفتحونها أن يضموا إلى حاميتها عدداً من اليهود .

عندما اقترب طارق من طليطلة علم بأن أهلها فارقوها ، فدخلها دون مقاومة تذكر ، ولما كان الشتاء قد أقبل ، وجد طارق إنه من الأفضل للمسلمين أن يستقروا بعض الوقت بالمدينة .

استطاع الجيش الذى قاده مغيث الرومى أن يباغت قرطبة ليلاً ، ودخلها من ثغرة فى سورها ، واعتصم أميرها وأصحابه فى كنيسة غربى المدينة ، فحاصرها المسلمون إلى أن تغلبوا عليهم وقتلوهم ، وفر الأمير فوقع فى إسار المسلمين ، واحتل مغيث قصر الأمير الذى سيصبح فيما بعد مقاماً للأمراء

تذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير ، عندما وصلت إليه الأخبار بنجاحات طارق وفتحه لطليطلة ، أكل الحسد قلبه ، ولحق بمولاه ليؤدبه ، ويقوم بفتوح أعظم من فتوحه . ونحن لا نصدق هذه الرواية ، لأن طارقاً إنما قام بهذه الفتوح باسم مولاه ، وكان هذا بدوره يزوده بين حين وآخر بإمدادات، وبعد عبور موسى والتقائه بطارق تعاون الاثنان معاً . ونرجح أن السبب فى مقدم موسى ، هو إن طارقاً تقدم كثيراً داخل البلاد ، إلى أن وصل إلى عاصمتها ، وخلف وراءه مدناً لم يتم فتحها ، تجمعت فيها فلول القوط ، تناوش المسلمين، وتشكل خطراً على طرق مواصلاتهم .

عبر موسى إلى الأندلس فى رمضان ٩٣/ يونية ٧١٢ وقد صحب معه ثمانية عشر ألفاً من العرب ، ونزل بالجزيرة الخضراء ، وسار منها إلى شذونة ثم قرمونة Carmona وواجه هناك مقاومةً شديدةً ، فاضطر إلى محاصرتها شهراً ، ثم دخلها بحيلة ، إذ أوهم يليان أهل المدينة أنه وأصحابه من فلول القوط التى فرت من وجه العرب ، ففتحوا له وجنده أبوابها ، وفى أعقابهم دخل المسلمون. ثم اتجه موسى إلى إشبيلية Sevilla وكانت الحامية القوطية قد انسحبت إلى لبلة Niebla على مصب وادى آنه Guadiana ، كما هرب نفر من أهلها إلى باجة Béja ، ودخل موسى المدينة ، وأنزل بها فريقاً من اليهود .

سار موسى من إشبيلية إلى ماردة Mérida ، فحاصرها وخرج إليه أهلها وقاتلوه قتالاً شديداً ، فأكمن المسلمون لهم وهزموهم ، فكروا إلى المدينة ، وحاصرهم المسلمون شهوراً ، ثم فكر موسى فى حيلة ، فصنع المسلمون دبابةً احتمى بها نفر منهم ، ونقبوا أسوار المدينة ، وتقاتل الفريقان ، ثم تم الفتح فى يوم الفطر من سنة ٩٤/ ٣٠ من يونية من سنة ٧١٣ ، وظفر المسلمون بالشىء الكثير ، ووقعت فى أيديهم زوج رذريق ، فأنكحها موسى ولده عبد العزيز ،

واستقر المسلمون بالمدينة فترةً ، يستريحون من عناء الحرب ، بيد أن موسى سمع بانتقاض إشبيليه ، واجتمع إليها أهل باجة ، ولبلة الذين كانوا هاربين ، وقتلوا ثمانين من رجال الحامية الإسلامية ، فسير موسى إليهم ولده عبد العزيز ، ففتحها من جديد ، وانتقم للمسلمين من أهلها ، واستولى على باجة ولبلة .

اتضح لموسى أن المقاومة في غربي الأندلس شديدة ، وعلم بأن فلول القوط ، تجمعت في المسالك الجبلية الوعرة لمهاجمة المسلمين ، وخاصة بين وادى آنة ونهر التاجه ، وقادهم - فيما يقال - رذريق . ولم يكن موسى يستطيع أن يمضى إلى طليطلة ، وهؤلاء يتحينون الفرصة للإنقضاض عليه ، لذا طلب من طارق أن يلتقى به عند موضع يقع فى منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، بالقرب من مدينة طَلَبيرة Talavera .

استطاع موسى بعد لقائه بطارق أن يقضى على المقاومة فى غربى الأندلس ، وعلى نهير صغير حمل اسمه - فيما بعد - هو نهر موسى Valmuza التقى المسلمون بالبقية الباقية من جيش رذريق ، وتمكنوا من تحقيق الانتصار النهائى عليه ، وقتل رذريق نفسه - نرجح - على يدى مروان بن موسى بن نصير ، وعقب المعركة دخل القائدان الكبيران طليطلة .

ما كاد موسى يستقر بطليطلة ، حتى سارع بضرب عملة ذهبية ، ليدفع منها رواتب جنده ، وجدير بالذكر إن هذه العملة نقش عليها باللغتين العربية واللاتينية معًا ، وبعث بمغيث الرومى إلى الخليفة الوليد بدمشق ينبئه بأخبار الفتح .

انتظر موسى فى طليطلة حتى انتهى الشتاء ، ثم سار وطارق إلى حوض الإبره ، واقترب من مدينة سرقسطة Zaragosa ، ففرغ أهلها وأزمعوا الفرار ، ولكن موسى أرسل إليهم يبلغهم الأمان ، ودخل المسلمون المدينة دون مقاومة ،

وما كادوا يستقرون بها ، حتى شرعوا فى ابتناء مسجد جامع ، قدر له أن يعيش عدة قرون بعد ذلك .

بعد سَرَقُسْطَة استولى موسى على وَشْقَة Huesca ولاردة Lérida وطَرَكونة Tarragona ، وشرع فى الاقتراب من جبال البرتات ، حين أتاه مغيث الرومى عائداً من دمشق ، ومعه كتاب الوليد بالعودة ، لكن موسى تابع سيره فى قشتالة القديمة ، ليؤمن طليطلة ، ثم قسم جيشه إلى قسمين ، فعهد إلى طارق بالسير نحو جبال كنتبرية Cantabria ، حيث استولى على أماية Amaya واسْتُرقة Astorga وليون León ، وسار موسى بمحاذاة نهر دويره إلى لُك Lugo بالقرب من أبيط Oviedo ، وفر جنود القوط إلى مكان بعيد يدعى بالصخرة Pico de Europa وانتهى به المسير إلى جيخون Gijón .

كان المسلمون قد نال منهم الجهد ، وقد ابتعدوا مسافات طويلة فى مناطق جبلية نائية ، وكانوا فى الوقت نفسه قد قضوا على المقاومة الرئيسية القوط ، ولم يتبق من هؤلاء سوى عدد يسير ، اعتصم بالجبال الوعرة ، فأهمل موسى شأنهم ، وما كاد يأتيه رسول آخر من الوليد بالعودة ، حتى اتخذ أهبته ، واجتمع بطارق بنواحى ليون ، وسارا معًا إلى طليطلة ، ثم قرطبة وإشبيلية ، وبارحا الأندلس فى ذى الحجة من سنة ٩٥/ سبتمبر من سنة ٧١٤، ووصلا إلى دمشق فى بداية العام التالى ، وكان الوليد مريضاً مرض الموت .

تذكر بعض المصادر أن سليمان بن عبد الملك ، حين أحسن باقتراب أجل أخيه ، أرسل إلى موسى ، يطلب منه أن يبطىء فى عودته ، حتى يصل إلى دمشق ، وقد صار هو خليفة للمسلمين ، فيتصرف فى الغنائم كما يشاء . وربما كانت هذه الرواية صحيحةً ، لأن موسى ـ كما نعلم ـ لم يتلق معاملة طيبةً من سليمان ، ولم يلبث أن يختفى ذكره وطارق ، ولم نعد نسمع عنهما

بعد قليل من عودتهما المظفرة إلى المشرق .

رغمًا عن تغير سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير ، إلا أنه أقر ولده فى حكم المغرب والأندلس ، ولكن إلى حين .

بعد رحيل موسى وطارق افتتح المسلمون بعض المدن التى كانت ما تزال خارجة عن سيطرتهم ، ومنها برشلونة Barcelona وبنبلونة ، ثم توجه عبد العزيز بن موسى بن نصير - أول ولاة الأندلس - ففتح يابرة Evora وشنترين Santarém وقلمرية Coimbra فى أقصى الغرب ، ثم انتقل إلى مالقة Málaga وغرناطة ، ومنها إلى إقليم مرسية Murcia فى الشرق ، وكان يحكم هذا الإقليم قائد قوطى يدعى تدمير Teodomiro ، حاصره المسلمون فترة فى عام ٩٦/ ٧١٤ ، ثم صالحوه على مدنه السبع على أن يؤدى الجزية ، ثم انصرفوا عنه .

على أن هذا الاتفاق بين العرب وتدمير ، كان اتفاقًا يرتبط بشخص تدمير فحسب ، وصارت حال الإقليم بعد سنوات حال غيره من أقاليم الأندلس ، ولم يتبق من ذكريات لتدمير سوى اسمه الذى صار علمًا على كورة [1] مرسية .

(١) تعنى فى المصطلح الإسلامى ولاية صغيرة ، وتعنى فى أيامنا محافظة .

عهد الولاة

نظرة شاملة في العهد

بعودة القائدين – موسى وطارق – يبدأ في الأندلس مايعرف بعهد الولاة (٩٥– ١٣٨ هـ = ٧١٤ – ٧٥٥ م) ، الذي استمر حتى وصول عبد الرحمن الداخل(الأول) ابن مُعاوية بن هِشام ، وما ترتب بعده .

استغرق عهد الولاة حوالي ٤٢ سنة ، تولى حكم الأندلس خلالها – بعد موسى وطارق – عشرون والياً[1] ، حكم اثنان منهم مرتين ، هما : عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قَطَن .

* * *

يمثل عهد الولاة في الأندلس التحول والانتقال إلى حياة جديدة خيّرة ، فيها التنوّر والامتداد في الغروس الثابتة النيّرة . وهو هدف أصيل ومهمة تهدف الانسان : تنظيفاً وتنقية وإعلاءاً وتكرمةً ، في كل ميدان . ليحدث ازدهار الشجرة الطيبة التي تؤتي أُكلها يانعة : لوناً سامي السمت ، غزير الانتاج ، فريد المثال . هبة الله وهدايته : نوراً مضيئاً في عالم الإنسان .

* * *

ترددت الأندلس – في ارتباطها الإداري – بين ولاية الشمال الإفريقي والإشراف المباشر لمركز الخلافة . وحين كانت الأندلس تتبع الشمال الإفريقي ، يقوم الوالي الإفريقي بتعيين ولاة الأندلس ، مثل : الحر بن عبد الرحمن الثقفي[2] (ذو الحجة ٩٧ – رمضان ١٠٠ هـ) وعَنْبَسَة بن سُحَيم الكلبي[3] (صفر ١٠٣ – شعبان ١٠٧ هـ) .

---

(١) قارن نفح الطيب ، ٢٤٩/١ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٥/٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٧/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٤ .

فيها كل أوربا ، وخلت من الوفاء بجزء يسير لحسن المعاملة والخير العميم الذي أصابها على الدوام . مما يُشَكِّل « **الحروب الصليبية في الغرب** » . وهو موضوع يستحق الاهتمام والدرس .

كان عهد الولاة غنياً بالجهود لإقرار الحال بعد تبديلها واستتباب الأمور . إذ تم تعديلها ، مع الإستمرار بالفتح في الجزيرة وما وراء البُرْت . بجانب ذلك تمت الإصلاحات الضرورية والتنظيمات ومراقبة التَسَدُّل الاجتماعي وما أُنجز في جوانب الحياة ، بدخول الناس في الإسلام وما ترتب عليه .

كان العهد بدايةً لنشأة العلوم الجديدة المتنوعة التي نضجت ثمارها على مراحل . فوُجِد في العهد إنتاج وأعلام في أكثر من ميدان ، وفي ميدان تكريم الانسان واعتلاء مكانته ، أو قُل فصول ولادته وحقيقة وجوده .

وسيتسع هنا الكلام عن عدد من الموضوعات التي تختص بهذا العهد ، بعد أن أشير إليها وألقي ضوءاً عليها .

أولاً : الاستقرار وتنظيم البلاد وإصلاحها

قبل أن يغادر موسى الأندلس (مع طارق) عيَّن ابنه عبد العزيز والياً عليها ، واتخذت إشبيلية عاصمة ، وبقيت كذلك حوالي ثلاث سنوات حتى انتقلت إلى قُرْطُبَة في ولاية أيوب بن حبيب اللَّخْمي (رجب ٩٧ – ذو الحجة ٩٧ هـ ، بعد عبد العزيز بن موسى) ، أو في ولاية الحر الثقفي (ذو الحجة ٩٧ – رمضان ١٠٠ هـ) بعد أيوب[1] . أو يكون ابتداء انتقال العاصمة إلى قرطبة في ولاية أيوب ، فأكده وأتمه الحر .

بقيت الأندلس بضع سنوات يجري فيها التنظيم وإقرار الأوضاع وتنسيق الأمور بإشراف الشمال الإفريقي . ثم أصبحت ولاية مستقلة خاضعة للخلافة ، وإن لم تستمر ،

(١) راجع : نفح الطيب ، ٢٧٦/١ ، ١٤/٣ ؛ أخبار مجموعة ، ١٩ ؛ فجر الأندلس ، ١٣٣ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٧٣/١ ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، السيد عبد العزيز سالم ، ٣٠/١ .

كذلك . وكان أول وال عينته الخلافة : السَّمح بن مالك الخَوْلاني في رمضان سنة ١٠٠ هـ (نيسان ٧١٩ م) ، وقد أقامه الخليفة عمر بن عبد العزيز . لكن تنظيمات الأندلس وسلطاته الأخرى عادت ــ أحياناً ــ تابعة للشمال الإفريقي .

هاجرت أعداد كبيرة من المسلمين إلى الأندلس بعد فتحها . وكان أكثرهم كما يظهر ــ من مسلمي البربر ، واستقروا في كل ناحية . وليس صحيحاً من أن المسلمين العرب استأثروا بأحسن النواحي[١] .

لعل سُكْنى بعض النواحي الجبلية من قِبَل مجموعات من مسلمي البربر قد تمّ بناءاً على رغبتهم ، وذلك يتناسب مع ما اعتادوا عليه في الشمال الإفريقي ، حيث بعض مناطقهم جبلية مرتفعة معروفة ، على الشاطئين الشمالي (البحر المتوسط) والغربي (المحيط الأطلسي) . ولدينا عدة نصوص تؤيد هذه الوجهة :

إن نواحي سهلة خصبة عديدة ــ بعضها غير جبلية ــ سكنها مسلمون من البربر[٢] ، مع غيرهم من المسلمين . مثلاً :

* كُورَة فَحْص البَلُّوط (Valle de Pedroches) الواقعة شمال قُرْطُبَة ، « وفَحْصُ البَلُّوط كُورَة خصبة واسعة ومدينتها غَافِق »[٣] .

* كُورَة السَّهْلَة[٤] ــ « وحَضْرَتُها مدينةُ شَنْتَمَرِيَّة »[٥] ــ التي كان بنو رَزِين (Albarracin) من سكانها[٦] ، وحكموها أيام الطوائف[٧] ، وتُعرف بشَنْتَمَرِيَّة الشرق (Santa Maria de Albarracin) أو سَهْلَة بني رَزِين[٨] . وهي

---

(١) انظر : فجر الأندلس ، ١٢٨ ، ٣٨٨ .

(٢) انظر : جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلس ، ٤٩٩ ــ ٥٠٢ .

(٣) المسالك والممالك ، الأصطخري ، ٣٦ .

(٤) انظر : نفح الطيب ، ١٦٦/١ .

(٥) المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد الأندلسي ، ٤٢٧/٢ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ، ٤٩٩ ــ ٥٠٠ .

(٧) دول الطوائف ، عنان ، ٢٥٣ وبعدها .

(٨) الحلة السيراء ، ١٠٩/٢ ؛ الحلل السندسية ، ١٠٠/٢ ، ٥٥٣/٣ . كذلك : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مؤنس ، ١٠٤ .

وجيشهما الإسلامي مكون من العرب والبربر – إلى المشرق « وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلّما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حَطُّوا به ، ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأنْدَلُس ، وخُذِل الشركُ ، ... ، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومَضَيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها »[1] . كما كان اختيار سكنى الأندلس متروكاً لمن يريد ، فأقام بها « من أراد سكناها . »[2]

هذا بيان على أن الأمور سارت حسب الرغبة التي كان لنوع الحياة السابقة ، وطبيعة الأرض المعتادة لهم . كانت الأرض الجبلية تناسب البربر ، فاختارها منهم من أراد « إذ كان البربر يرغبون عن سكنى المدن والقرى ، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحارى »[3] . زيادة على أن بعض المسلمين العرب سكنوا الجبال وبعض المسلمين البربر سكنوا السهول ، وقد سكن المسلمون – عرباً وبربراً – سوية بأي نسبة ، فهم إخوة في الله تعالى ، ألف بينهم – سبحانه – بهذا الدين .

* * *

كان عبد العزيز بن موسى رجلاً تقياً قوياً وحريصاً ، مع نشاط وإقدام ، كما كان إدارياً وعسكرياً ماهراً ، زيادة إلى حبه للاصلاح وتلهّفه عليه ، بدأ ينظم أحوال البلاد ويتم عمليات الفتح ، وقضى على كثير من الجيوب المتبقية فأخضعها .

أثنت المصادر العديدة عليه . يذكر المَقَّري – لعله نقلاً عن الرازي[4] – أن عبد العزيز « ضبط سلطانها ، وضَمَّ نَشَرَها ، وسَدَّ ثُغورها ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ممّا كان قد بقي على أبيه موسى منها ، وكان من خَيِّر الولاة ، إلاّ أن مُدّته لم تَطُل »[5] . كما نشط في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ،

(١) نفح ، ١/٢٧٦ ، ٢٨٠ ؛ الاحاطة ، ١/١٠٣ . قارن : العبر ، ٤/٢٥٩ ؛ نفح ، ١/٢٩٠-٢٩٨ .
(٢) البيان المغرب ، ٢/٢٣ .
(٣) المصدر السابق ، ٢/٧ .
(٤) المصدر السابق ، ٢/٢٤ .
(٥) نفح الطيب ، ١/٢٨١ . ضمّ نشرها : لمّ شعثها . كذلك : البيان ، ٢/٢٤ . كان من عقبه في قرطبة : الفقيه أبو بكر محمد (٣٩٠ هـ) . الصلة ، ٤٩٩ (رقم : ١٠٨٣) .

وكذلك وعَمِل الحر الثقفي [1] .

اتبع الفاتحون السياسة الحكيمة المتسمة بالرفق والاعتدال والوفاء بالعهود والالتزام بها في كل الظروف[2] . ومن المعاهدات التي حفظتها مصادرنا جزءٌ من مُصالحة موسى مع أهل مَارِدَة[3] ؛ والنص الكامل لمعاهدة كانت بين عبد العزيز وبين تُدْمير ، حاكم الإقليم المسمّى بنفس الاسم (Tudmir) ، الذي عُرف فيما بعد باسم مُرْسِيَه (Murcia) . وقد مر نص هذه الوثيقة السياسية المهمة[4] .

تولى حكم الأندلس – بعد مقتل عبد العزيز بن موسى – واليان ، ثم أقام الخليفة عمر بن عبد العزيز (صَفَر ٩٩ – رَجَب ١٠١ هـ) عليها السَّمْح بن مالك الخَوْلاني (رمضان ١٠٠ – ذو الحجة ١٠٢ هـ) . وبه تبدأ مرحلة أُخرى متممة ، ليس فيما يتعلق بنشاط المسلمين بالفتوحات وراء جبال البُرْت ، بل أيضاً بتنظيم بلد الأندلس وإقرار الأوضاع فيها والقيام بإصلاحات . وأصبحت الأندلس به ولاية مستقلة عن الشمال الإفريقي ، خاضعة إلى الخلافة رأساً .

يذكر مؤرخونا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز فكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين عنها « وكان من رأيه أن يَنْقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبُعْدِهم عن أهل كلمتهم »[5] . وطلب من السمح أن « يكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها »[6] . فكتب إليه السمح « يُعَرِّفُه بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم وشرف معاقلهم »[7] . فَعَدَل عمر بن عبد العزيز عن رأيه وأقَرَّ السَّمْح على ولايته[8] .

تتابع الولاة على الأندلس بعد استشهاد السَّمْح . كان تنظيم البلاد وإصلاحها

(١) دولة الإسلام ، ٧١/١ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٧٧ – ٨٢ . كذلك : أندلسيات ، ١٩/٢ .

(٣) أعلاه ، ٧٧ .

(٤) أعلاه ، ٨٠ – ٨١ .

(٥) نفح الطيب ، ١٥/٣ . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٦) نفس المصادر . كذلك : فجر الأندلس ، ١٣٧ ، ٦٠٥ .

(٧) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٩ .

(٨) راجع : البيان المغرب ، ٢/ ٢٦ .

وإدارتها ووضع التشريعات للبلد – حسب الشريعة الإسلامية – هو عمل هؤلاء الولاة ، وقاموا بجهود كبيرة للاستمرار بموجة المد الإسلامي فيما وراء البُرْت (الأرض الكبيرة) . وفي أحيان – بعد ذلك – عادت الأندلس لتبعيتها للشمال الإفريقي .

اهتم ولاة الأندلس بتنظيم البلاد وإدارتها وحسن السياسة للرعية بكل جماعاتها والقيام بالإصلاحات اللازمة . وأمر عمر بن عبد العزيز السَّمْح بن مالك بأن « يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، . . . ، وامتثل ما أمره به عمر (رضي الله عنه) من القيام بالحق ، واتِّباع العدل والصدق ، فانفرد السَّمْحُ بولايتها ، وعزلها عمر عن ولاية إفريقية ، اعتناءً بأهلها ، وتَهَمُّماً بشأنها . »[1]

تنوه مصادرنا – بعد ذلك – بسِيَر العديد من الولاة وتفانيهم في الجهاد ، من أمثال عبد الرحمن الغافقي وعُقْبَة بن الحَجّاج السَّلُولي . جاء في **نفح الطيب** – عن الغافقي – أنه قد « استقامت به الأندلس ، و ضبط أمرها »[2] .

وكان هناك تنظيم إداري خاص بالمسلمين وآخر لغير المسلمين ، وكلما تقدم الزمن كان الناس يدخلون في الإسلام أكثر . وبذلك يصبح غالبية سكان الأندلس يحتكمون إلى الشريعة الإسلامية ، وأصبح غير المسلمين أقليه يحتكمون إلى قضائهم . لقد ترك المسلمون للنصارى (وغيرهم) حق اختيار قضاتهم ورؤسائهم . وليس هذا فيما يتعلق بالقضاء فقط ، بل كذلك فيما يتعلق بالجباية والأمن وتنظيم الحرف .

في حقل الزراعة ، مثلاً : ذهب ماكان من اعتبار الزارع رقيق الأرض . وأصبح هؤلاء الزراع أحراراً ، لهم حقوقهم ، يزرعون الأرض مُلاّكاً لها[3] .

عاش غير المسلمون أحراراً في عقائدهم ، وبقيت الكنيسة تملك بعض الأراضي . وكان النصارى أحراراً في عقد مجامعهم ، واختلط كثير من غير المسلمين (النصارى واليهود) بالمسلمين ، وتقبلوا لغتهم وكثيراً من عاداتهم .

---

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ١٦/٣ .

(٣) راجع : البيان المغرب ، ٢/ ٢٦ ؛ العبر ، ٢٥٧/٤ ؛ نفح الطيب ، ٢٣٥/١ ، ١٥/٣ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٣ – ٢٤ ؛ فجر الأندلس ، ٤٥٩ وبعدها .

« والقنطرة التي على هذا النهر عند قُرْطُبَة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبع عشرة قوساً ، وبانيها — على ماذكره ابنُ حيّان وغيرُه — السَّمْح بن مالك الخولاني صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه »[1] . وعنها يقول الإدريسي : « ولقُرْطُبَة القَنْطَرة التي علَت القناطر فخراً في بنائها وإتقانها ، وعدد قِسِيِّها سبع عشرة قوساً بين القوس والقوس خمسون شبراً ، وسَعَة القوس مثل ذلك خمسون شبراً ، وسَعَة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبراً . ولها ستائر من كل جهة تستر القامة . وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جُفوف الماء ثلاثون ذراعاً ، وإذا كان السيلُ يصلُ الماءُ منها إلى نحو حُلُوقها . وتحت القَنْطَرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعُمُد الجافية من الرخام . وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء ، في كل بيت منها أربع مطاحن . »[2] ولهذه القنطرة أهمية حيث تصل جنوبي الأندلس بقرطبة والشمال الإفريقي[3] .

ثانيًا : انتشار الإسلام واعتناق الإسبان له

لم يكن فتح المسلمين لشبه الجزيرة الأندلسية حَدَثاً عسكرياً وسياسياً فحسب ، بل — الأهم من ذلك — أنه كان فتحاً إنسانياً وبداية لحدث حضاري فريد لإسبانيا وأوربا على السواء[4] .

قضى الإسلام في إسبانيا على الأوضاع السيئة التي سبق وصفها ، قبل الفتح . فلم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة في الأسرة الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض أو العبيد (الرقيق) ، حيث تحرر كل مَن دخل منهم الإسلام ، وقد دخل أكثرهم — أو كثرة منهم — الإسلام .

---

(١) نفح الطيب ، ١/٤٨٠ . كذلك : نفح الطيب ، ١/٣٣٨ ، ٣/٤٦٠، ١٥ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٦ ؛ العبر ، ٤/٢٥٧ (= نفح ، ١/٣٢٥) .

(٢) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢١٢ (= الحلل السندسية ، ١/١٤٤) .

(٣) راجع كذلك : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ١/٩٧ وبعدها ؛ فجر الأندلس ، ١٣٩ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٧٥ .

(٤) انظر : أندلسيات ، ٢/١٥١ .

الإنسانية ـ بصورتها الإسلامية ـ فيها ، واعتلاء الإسلام دفة الأمور وصياغة الأحداث والتصرفات والأخلاق ، وسرعة وضخامة الانجاز في الحياة وفي الإنسان ، فأشرقت حياته على أضوائه الساطعة .

أقبل الناس على الدخول فيه ، ليس فقط عن طواعية واختيار ، بل وعن رغبة واجتذاب ، لِمَا رأوا من جلال شريعته وجمال عقيدته وسماحة نظرته وتساوق وجهته والأخذ بالانسان لكرامته ، للذكور والإناث سواء ، منذ الصغر وحتى يغدوا كباراً . فشاهدوها متمثلة في المسلم : أفراداً وجماعات ، في الدولة والمجتمع ، فيما بينهم ومع الآخرين . وتركزت وظهرت هذه المعاني بوضوح ، منذ الفتح الذي تَمَثَّلت فيه كلُّ صور الكرامة الإنسانية . وهذا الموضوع جدير ببيان أطول وتتبع للنصوص وتجول في المصادر ، لتقديم صورة أجلى وأشمل .

ثالثاً : جهاد المسلمين في الأندلس وخلف البرت

لم يكن المد الإسلامي حركة غزو وغنائم وسيطرة سياسية . فهو يخالف غيره في الأساس والهدف والمنطق والتصور والأسلوب والغاية . بل هو موكبُ دعوة منيرة وامتداد متصل وجهاد دائم ، أفقاً وعمقاً . دعوة ميدانُها الأرضُ كلُّها ، وبنو البشر كافة موضوعُها وموضعُها ـ وآفاقها من ذلك أوسع ـ تسعى إليه وتحنو عليه . تَعْمُرُ نفسَه وتُعْلي رأسَه ، ليَعُمَّ نورُ الله المبينُ وشرعُه المكين أهلَ الأرض أجمعين ، تدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيُقبلوا عليه مختارين وبرغبة حُرّة بَرّة مميزة . فتسارعوا هم للدخول فيه أفواجاً واعتناقه ليُصبحوا من أهله ، العاملين تحت رايته المجاهدين لنشر شريعته ﴿ وقاتِلُوهم حتى لاتكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كُلُّهُ لله ﴾[1] . وهكذا سَرَت دعوةُ الإسلام في الأرض عامرةً باهرةً ، وفي ذلك يقول العالم المجاهد ابنُ تَيْمِيَّة (٧٢٨ هـ) :

---

(١) من الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

« إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأُمم ، ولكن نقلوا الأُمم إلى الإسلام »[1] .

يحدث هذا دوماً[2] ، إذ هو يسير بنفسه ، وحين تتاح أقل فرصة وإمكانية لبيان الإسلام ويتمثّلُه أهلُه ودعاتُه ، فكيف لو قام به مجتمع وعاشت في ظله أمة . إنه الوحيد الهادي للانسان المنقذ من كل ضلال والصائن له من الانحراف ، أي انحراف. لأنه شرعُ الله ، العليم الحكيم ، لخلق الله ، الملائم لفطرتهم القائم على سعادتهم في الدارين . حتى ليكاد ينتشر بدون دعاة — وفي العصر الحديث كذلك — وهو ما يخشاه أعداؤه ، على تنوّع مصالحهم واتجاهاتهم ، رغم امتلاكهم القُوى المادية ، وتقوم كذلك لهم دول كبرى قوية ، وهو منها مجرد . وما انفكوا يُعبّرون عن ذلك بأكثر من أسلوب وبالعديد من الأشكال[3] .

ذلك مالاحظناه خلال كل الفتوحات ، التي كانت حركة انسياح في الأرض ، تزرعها خيراً وبركة ، وتيار اكتساح يطوي الظلمات لتشرق الدنيا بنور الله .

استمرت موجة المد الإسلامي هذه في عهد الولاة ، الذي ابتدأ بولاية عبد العزيز ابن موسى بن نُصَيْر ، وكان لها نشاط وافر ، وبصورة رئيسة وراء جبال البُرْت .

ولانتقال الجهاد وراء جبال البُرْت مدلول . لعله تعبير عن قوة الدفع وجلالة المد التي زادت عن متطلبات الوجود الإسلامي في الأندلس وقتها ، فنقلت النشاط من ميدانه أمام البُرْت إلى ما خلفه في الأرض الكبيرة .

وقد شمل جهاد هذا العهد موضعين أو جبهتين :

١ — داخل الأندلس ، لاسيما الشّمال .

٢ — خلف جبال البُرْت ، في فرنسا .

---

(١) أخبار عمر ، ٩٩ — ١٠٠ . انظر كذلك : فجر الأندلس ، ٤١٧ .

(٢) انظر مثلا : (تاريخ غزوات العرب ، ٢٨٨) *Muslim colonies*, 208 .

(٣) انظر مثلا : الاسلام والغرب والمستقبل ، توينبي ، ٧٣ ؛ التبشير والاستعمار ، مصطفى خالدي وعمر فروخ ، ١٣١ ، ١٨٤ .

١ – الجهاد في الجزيرة الأنْدَلُسيَّة

رأينا هذا الجهاد متواصلاً ومستمراً ، حيث شَمَل الفَتحُ السابق كلَّ الجزيرة الأنْدَلُسيَّة ؛ غير مواضع قليلة لم تُترك أو تُهمل مدة الوُلاة . بل وُجِّهَت لها حَمَلات عدة خلالها لتأكيد الفتح أو إنجازه .

قام عبد العزيز بن موسى – مدة ولايته : سنتان – ببعض عمليات الفتح ، داخل الجزيرة الأنْدَلُسيَّة . وكان قد تولى – قبل ولايته – فتح عدة مدن في شرقي الأندلس وغربيه ، كما مر[١] . كانت هذه المهمة واضحة عنده ، بجانب حماية ثُغُورها . وهو ما أكده له والده موسى وكلّفه به . ثم إن موسى بن نُصَيْر « قَفَلَ عن الأنْدَلُس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثُغُورها ، واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها »[٢] . وليس لدينا ثَبْتاً واضحاً عن كل الأماكن التي افتتحها عبد العزيز في ولايته ، لكنَّ بعض مؤرخينا يذكرون – تعميماً أو تخصيصاً – مُدُناً افتتحها عبد العزيز .

يذكر ابن خَلْدون أن عبد العزيز « كان خيّراً فاضلاً ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة . »[٣] ويذكر ابن عذاري في بيانه أن عبد العزيز في ولايته الأندلُس « ضبط سلطانها ، وسَدَّ ثُغُورها ، وافتتح مدائن كثيرة . »[٤]

آ – نقل العاصمة وتعيين بَلاطها

استُشهِد عبد العزيز بن موسى ، مقتولاً (رجب ٩٧ هـ) بيد زياد بن عُذْرَة البَلَوي وهو يصلي في مسجد (رُفَيْنَة) بإشْبيليَة[٥] ، واجتمع أهلُ الأندلُس على تولية أيوب بن حبيب (رجب ٩٧ – ذو الحجة ٩٧ هـ) ، ابن أخت موسى بن

---

(١) أعلاه ، ٧٨ – ٨٣ .

(٢) العبر ، ٢٥٥/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) .

(٣) العبر ، ٢٥٦/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢١ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٦ .

(٤) البيان المغرب ، ٢٤/٢ . كذلك : أعلاه ، ١٣٩ .

(٥) راجع : أعلاه ، ١٥٩ .

(قُرْطُبَة ، ٣٧٧ – قُرْطُبَة ، ٤٦٩ هـ) ونقله عنه ابن الخطيب (لَوْشَة ، ٧١٣ – فاس ، ٧٧٦ هـ) في كتابه **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يَجرّ ذلك من شجون الكلام**[1] . وردت صورة أخرى لهذا النَّص في **طوق الحمامة** وبين الصورتين قليلٌ من الاختلاف غير المخل . يشير ابنُ حيّان إلى تَفَجُّع ورثاء الفقيه الأديب (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم) لقُرْطُبَة ، حين طالعتها الفتنة المفضية إلى الطوائف . وأنه وجد بخطّه : « وقفت على أطلال منازلنا ، بحَوْمَة بَلاط مُغيث من الأرباض الغربية . . . »[2] . أمّا صورةُ نص **طَوْق الحمامة** : « ولقد أخبرني بعض الوُرّاد مِن قُرْطُبَة : وقد استخبرتُه عنها ، أنه رأى دُورنا ببَلاط مُغيث ، في الجانب الغربي منها وقد امّحت رسُومها ... »[3]

كل هذه النصوص تُعَيِّن لنا موقعَ بَلاط مُغيث – الذي كان له أولاً – في غربي قُرْطُبَة ، ثمَّ اعتاض به آخر في شرقيها . فحمل الأول – الذي في غربيها – اسمه . وسُمِّي الحي الذي فيه به « رَبَض بَلاط مُغيث » في غَرْبي قُرْطُبَة .

ب – الجهاد في الأنْدَلُس

تَتَابَعَ الوُلاةُ الأندلسيّون[4] . وهناك أسباب عدَّة أدَّت إلى كَثْرَتهم في سنوات قليلة ، ولهذه الظاهرة نتائجها . حَكَمَ الأنْدَلُسَ عشرون والياً في أربعين سنة ، تَوَلّى إثنان منهم الأمر مرتين ، هما : عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قَطَن .

---

(١) ذكر اسم الكتاب هكذا في : نفح الطيب ، ١٠٠/٧ .

(٢) أعمال الأعلام ، ١٠٠٦/٢ ؛ مجلة الأندلس الاسبانية (*AL-ANDALUS*) ، ٣٦١/١/١٥ .

(٣) طوق الحمامة ، ٩٤ . قارن : طوق الحمامة ، ١١٨ . انظر كذلك عن بلاط مغيث : الصلة ، ابن بشكوال ، ٢٤/١ ، ٣٥٨ ، ٤٩٦/٢ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٥٦/١ (رقم : ١٨٦) ، ١٠٨ (رقم : ٣٣٥) . قارن : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، سالم ، ٢٦/١-٢٧ ، ٣٠ . رثاء قرطبة – نثراً وشعراً – يمكن بحثه ضمن موضوع : « الرثاء البلداني في الأندلس » الجدير بالعناية . عن رثاء قرطبة انظر : نفح الطيب ، ٥٠٠/١ ، ٥٥٧ ، ٦٢٩ .

(٤) انظر : أعلاه ، ١٣١ .

وهذا التبدل قد يؤدّي إلى عدم الاستقرار الدائم الذي يُنتج الاستمرار في الفتح وتنفيذ خُطوات الإصلاح ، مع ذلك فقد كانت هناك سنوات من الاستقرار ، خلال هذه المدة ، وكلما ساد الاستقرار تأكّدت وَحْدَة الأنْدَلُس وقَوِيَتْ شَوْكَتُه وبرزتْ عناصر الجهاد وحبّ نشر العقيدة . لذلك نرى – في مثل تلك الأوقات – استمرار عمليّات الفتح ، لا في الأندلس ولكن أيضاً فيما وراء جبال البُرْت في فرنسا ، التي اعتاد المؤرخون والجغرافيّون المسلمون – لا سيّما الأنْدَلُسيُّون – أن يُسَمّوها : « **الأرض الكبيرة** » ، ولا تعني حدوداً ثابتةً دوماً . فقد تَعْني كلّ أو بعض المناطق والبلدان الواقعة خلف جبال البُرْت ، أي : تشمل عدداً من الدول الأوربيّة وخاصّة فرنسا[1] .

يَتَبَيَّنُ من النصوص المتوفّرة أنّ جُهودَ المسلمين وجِهادَهم – في هذا العهد – كانت كثيرة وفيرة ، تجاه ما تتطلّبه الحياة الجديدة في الجزيرة الأنْدَلُسيّة وما حدثَ مِنْ تَبَدُّل شامل ، نتيجة دُخُولها رِحاب الإسلام ، وغَطّى جزءٌ منها حاجةَ بعض المناطق الشّماليّة إلى فتح جديد أو تثبيته وتأكيده أو إعادة له ، وقد ذُكر جهاد عدد من الولاة فيها .

وغير واضح – تماماً – المدن التي فتحها الوُلاة داخل الجزيرة الأندلُسيّة . وحين يتحدّثُ بعضُ مؤرخينا عن عهد الوُلاة تتقدّمُ أحياناً صورةٌ مجملة – على ما يبدُو – لحالة العهد وجهاده ، داخلَ الأندلُس وخارجَها . يُشير ابن عِذاري إلى جِهاد عَنْبَسَة – يَظهر أنه خلف البُرْت – فيخبر أنه قاتلَ الرّومَ وحاصرَهم « حتى صالَحُوهُ »[2] . كما يذكر ابن خَلْدُون في عِبَرِه عن الوُلاة المتتابعين أنهم « افتتحوا بَرْشَلُونَة من جهة الشرق وحُصونَ قَشْتَالَة وبَسَائِطَها ، من جهة الجَوْف »[3] .

نعرف – ممّا سبق[4] – أنّ بَرْشَلُونَة وقَشْتَالَة وما حولهما من مناطق

---

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٦٧ ؛

Andalusian diplomatic relations, 102, 272.

(٢) البيان المغرب ، ٢/٢٧ .

(٣) العبر ، ٤/٢٥٦ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٤) .

(٤) أعلاه ، ٩٢ ، ١٠٠ – ١٠٦ .

عدة لأمورهم ومتعلقات جهادهم ، وموضع وتاريخ استشهادهم . وغير بعيد كذلك أن يكون بعض هؤلاء وغيرهم ــ جنداً وقادة ــ من التابعين .

لم يكن عهد الولاة إذن يخلو من عمليات جهاد ــ جديدة أو متممة ــ متفرقة ، داخل الجزيرة . شَغَلَت عنها ــ فيما بعد ــ عدةُ أُمور ، مع ظروف أخرى في الداخل والخارج كان لها أخطر النتائج .

٢ ــ الجهاد خلف البُرْت

بلغت قوة المد الإسلامي وراء البُرْت ــ خلال عهد الولاة ــ مبلغاً عالياً وحازت سبقاً كبيراً ، كان للمسلمين فيه نشاط واضح ، وقَدَّم عددٌ من الولاة كلَّ التضحيات في هذا السبيل ، واستُشْهِد بعضهم في ميدان الجهاد في سبيل الله من أجل نشر العقيدة الاسلامية وحباً في خدمتها .

بذل السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني (رمضان ١٠٠ ــ ذو الحجة ١٠٢ هـ) نشاطاً واسعاً في جنوبي فرنسا ، وأنفق جُهوداً كبيرة في غَالة (Gaule) حتى طَرَسْكُونَة (Tarascon) وطُولُوشَة (Toulouse) عاصمة أقيطانية (Aquitania) . وحدثت معارك عديدة هناك ، منها معركة بين المسلمين وبين دوق أقيطانية ، واشتد القتال ، واستشهد كثرة من المسلمين ، معهم الوالي السَّمْح بن مالك الخَوْلاني ، في يوم التَّرْوِية أو عَرَفَة سنة ١٠٢ هـ (١٠ حزيران ٧٢١ م) . ذَكَر ابنُ بَشْكُوال أن السمح « استُشْهِد بأرض الفِرَنْجَة يومَ التَّرْوِيَة سنة اثنتين ومئة . » [١] والظاهر أن قول ابن حَيان الآتي ــ فيما يرويه المَقَّرِي ــ يتعلق بهذه المعركة ، ولو أنه يُسميها « وقعة البَلاط » سهواً أو اشارة لغيرها « قال ابن حيَّان : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، وذُكِرَ أنه قتل في الوقعة المشهورة عند أهل الأنْدَلُس بوقعة البَلاط ، وكانت جنود الإفْرَنْجَة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين ، فلم يَنْجُ من المسلمين أحد »[٢] . فهل أن هذا يخص الوقعة التي استُشْهِد فيها السَّمحُ (ذو الحجة ١٠٢ هـ)

(١) نفح الطيب ، ١٥/٣ .

(٢) المصدر نفسه .

إلى غير ذلك من الأقاصيص الوهمية . لكن كل ما صاغته واخترعته حول شخصية مُنُوسَة الخرافية[1] يغدو – عند المتابعة – حُطاماً يتعثر الباحث بأنقاضه . فيتبدى أن مُنُوسَة اسم مكان وليس – أصلاً – اسم إنسان .

لايظهر وجودُ أساس قوي لاعتبار صحّة مثل هذه القصة التي قَبِلَها عدد من الباحثين المحدثين ، أخذاً بالرواية الأوربية .

ولم يتيسر الوصول إلى نص أندلسي يُشير إلى وجود مثل هذه الشخصية أو يشرح أحداثاً قام بها . وحَمْل اسم مُنُوسَة (مُقُوشَة) – حسب نصيْ : ابن عِذَارِي (بعد ٧١٢ هـ) وابن خلدون (٨٠٨ هـ) – على أنه اسم قائد مرجوحٌ ، والعبارتان تدلان بشكل أقوى أنها اسم مكان . فهل تكون هي مدينة ماسون (Maçon) الفرنسية ، الواقعة شمال مدينة لُوذون (لِيُون Lyon) على وادي رُودَنُه (نهر الرون Rhone) . فتكون هذه من المناطق التي وصل إليها الهيثم ، وهي مع غيرها – جنوباً وشمالاً – شَمَلها جهادُ المسلمين وراء البُرْت لهذا العهد .

جـ – وَقْعَة بَلاط الشهداء

يبلغ المَدُّ الإسلامي نقطةً بعيدة في أضخم حملة وراء البُرْت مدةَ الوُلاة ، أيام الوالي المجاهد **عبد الرحمن الغَافقي** (صَفَر ١١٢ – رمضان ١١٤ هـ = مايس ٧٣٠ – تشرين الأول ٧٣٢ م) ، حيث جَدَّد نشاط الفتح الإسلامي . وتُعْرَف هذه المعركة باسم « **وَقْعَة البَلاط** »[2] أو « **غزوة البَلاط** »[3] . كما عرف الموضع الذي جرت فيه باسم « **بَلاط الشهداء** »[4] . جرت أحداثها – التي استمرت **حوالي عشرة أيام** – في رمضان سنة ١١٤ هـ (تشرين الأول – تشرين الثاني = اكتوبر – نوفمبر ٧٣٢ م)[5] ،

(١) انظر : العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، عمر فروخ ، ١٢٧ .

(٢) نفح الطيب ، ١٥/٣ (نقلا عن ابن حيان : النص المذكور أعلاه ، ١٨٥) .

(٣) نفح الطيب ١٦/٣ (نقلا عن ابن بشكوال) .

(٤) نفح الطيب ، ٢٣٦/١ (نقلاً عن ابن خلدون) ؛ ١٦/٣ (لعله نقلاً عن ابن حيان) ؛ البيان المغرب ، ٥١/١ .

(٥) قارن : *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I, 62 (Sp. tr., IV, 37).

واستُشهد الغافقي نفسه، في موضع يقع بين مدينتي تور (Tours) وبواتييه (Poitiers)، فوق ٢٠٠ كم جنوبي باريس ، وانتهت الوقعة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها .

مكان المعركة

لم يمكن تحديد موقع الميدان الذي دارت فيه أحداث معركة بلاط الشهداء بدقة . فمراجعنا الأندلسية – والإسلامية عموماً – لم تفصح عن ذلك ، لكنها ذكرت أن المعركة دارت في بلاد الفِرَنْجَة وسَمَّت الموضع « بلاط الشهداء » .

تحدث بعض الباحثين الأوربيين في تحديد المكان ، إلا أنهم اختلفوا في ذلك ، ولم يخرج هذا الاختلاف في التحديد عموماً عن المنطقة الواقعة بين مدينتي : تور (Tours) – على نهر اللوار (Loire) – وبواتييه (Poitiers) – على كلين (Clain) رافدفين (Vienne) أحد فروعه – والمسافة بين المدينتين حوالي ٩٠ كم . لذلك تسمي المعركة – في الرواية الأوربية – باسم إحدى المدينتين أو كليهما . فذُكر أنها بدأت عند تور[١] ، كما ذُكر الميدان قرب بواتييه[٢] . ويذهب إلى الأخير العديد . وذُكر أن ميدان المعركة قرب طريق روماني يصل بين بواتييه وشاتلرو (Chatellerault) – على نهر فيين ، فرع اللوار – وبينهما حوالي ٣٠ كم ، في مكان يبعد حوالي ٢٠ كم شمال شرق بواتييه . يُحتمل في المكان المسمَّى حالياً موسّيه لاباتاي (Moussais — la — Bataille)[٣]. وأشير أخيراً إلى قرية Fossé – le — Roi

---

(١) يزعم رينو (*Muslim colonies*, Reinaud, 49 n. , 50 ، تاريخ غزوات ، ١١٨ ، ١٣١) أن مصدره في ذلك مؤرخون عرب ، ولم يذكر أحداً ، بل يشير الى كوندي (Conde) وليس هناك شيء . وهو غير موثق (تاريخ غزوات، ٣٧، ٤٢)، إذ يقول المستشرق الاسباني كوديرا (Codera) عن كوندي (أورده أرسلان: تاريخ غزوات، ٣٧ حاشية) (إنه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندي هذا . » ومن الغريب أن يكثر رينو النقل عنه ويتابعه في غير تمحيص ، بل ويثني عليه (*Muslim colonies*, 6 ، تاريخ غزوات ، ٣٧) ، مع اشارته لعدم ذكر كوندي مراجعه (*Muslim lolonies*, 8 ، تاريخ غزوات ، ٣٨) . فوقع رينو في كثير مما وقع فيه كوندي .

(٢) *Muslim colonies*, 51 (تاريخ غزوات ، ١٣١) .

(٣) *Histoire*, I, 61 — 2 (Sp. tr. , IV, 37).

(خندق الملك) الواقعة بين مدينتيْ : تور (طور) وبواتييه (بواتيه) ،« وقد استكشف هناك حديثاً في الحفريات بعض السيوف العربية »[1]. فلعل موضع هذه القرية يقع ضمن ميدان معركة بَلاط الشهداء ، إلا أنه لم يُحدَّد موقعها .

مصادرها

لاتمدنا المصادر الأندلسية – المتوفرة لدينا – بمعلومات واضحة أو تفصيلات شافية عن هذه الوقعة ، ولاتلقي عليها غير ضياء جدٍّ خافت ، وإن كان أقل خُفوتاً حين تتحدث عن الوالي الغافقي وجهوده في الأندلس أمام البُرْت وجهاده وراءها . كان ذلك ومعركة « بَلاط الشهداء » مهمة في أحداثها ونتائجها واحتوائها على التجهيزات الضخمة والإعداد الكبير والتضحيات العالية الغالية ، قدّمها المسلمون . وليس بعيداً أن هناك معلومات قَيِّمَةً دُوِّنَت عنها وضاعت مع ماضاع من هذه المصادر . سَيُلْقي العثورُ عليها ضوءاً جديداً يساعد علي رؤية صورة أوضح لأحداثها وحقائق مجهولة لنتائجها . أمثال : مؤلّفات آل الرازي – لاسيما أحمدهم (٢٧٤ – ٣٤٤ هـ) – ومُقْتَبِس ابن حَيَّان القُرْطُبي (٣٧٧ – ٤٦٩ هـ) وما كتبه ابن بَشْكُوال (٤٩٤ – ٥٧٨ هـ) وآخَرون .

المصادر الإسلامية

أورد المَقَّري – نقلاً عن ابن حيَّان ، فيما يبدو – أن الغافقي « غزا الإفْرَنْج فكانت له فيهم وقائع جَمَّة الى أن استُشْهِد ، وأُصيب عسكرُه في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومئة ، في موضع يُعرف ببَلاط الشهداء . »[2] فاذا كان هذا كلام ابن حَيَّان فاننا نجد نصاً لابن خَلْدون يكاد يطابقه : « وغزا الإفْرَنْجَة وكانت له فيهم وقائع ، وأُصيب عسكرُه في رمضان سنة أربع عشرة [ومئة] ، في موضع يُعرف ببَلاط الشهداء ، وبه عُرفت الغزوة »[3] . وهذا يشير الى أن ابن حَيَّان كان مصدراً – أساسياً مهماً – لابن خَلْدون في كتابة تاريخ الأندلس في عِبَرِه الى حد

---

(١) تعليق لدكتور ، لم يذكر اسمه ، في مجلة (المسلمون) ، ٧٩/٣/٥ .

(٢) نفح الطيب ، ١٦/٣ ، وسبق ايراد قول غيره لابن حيان يتحدث فيه عن « البلاط » . انظر : نفح الطيب ، ١٥/٣ (= أعلاه ، ١٨٥) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣٦/١ (نقلا عن ابن خلدون : العبر ، ٢٥٨/٤) .

هذه الحملة – في أراضٍ فقيرة الثروة وأهلها مُعْدِمُون[1] . في حين لم نسمع أو نألف له ذلك الاهتمام والأسلوب في عمليات جهاده – وهي كثيرة – في الأرض الكبيرة قبل الغافقي .

لكن هذا التغلب المحدود للجيش الفرنجي والانسحاب المفاجيء للجيش الاسلامي بعد الذعر الذي أصاب محاربي الفرنج جعلهم يعتبرونه بهذه المثابة ، بعد أن افتعلت الكنيسة تُصَوِّرُه خطراً صده هذا التجمع . غذته – وعملاؤها – بحقدها وكراهيتها لهذا النور الذي حمله المسلمون اليهم والى أهل الأرض كافة ، ونَوَّه به – أملاً بخلاص أوربا وانقاذها – بعضُ كتابها من أهل الانصاف والتَّمتع بمقدار من صفاء الرؤية ، فتولوا عن دوافع الصليبية وعصبيتها المدفونة .

حقائق

كثر الكلام حول هذه المعركة ، وأحاطها المؤرخون الأوربيون بزائد من الاهتمام . المعركة لا مِرْيَةَ مهمة ، لكن بعض المؤرخين الأوربيين اعتبروها فاصلة ، حتى قال بعضهم : إنه لو انتصر المسلمون في هذه المعركة لرأينا القرآن الكريم يتلى ويدرس في جامعات الغرب[2] ، أي أن هذه البلدان كانت ستصبح مسلمة . لا شك أنها لو أصبحت كذلك لكانت نهضتها (وعلى أسس فاضلة وآفاق شاملة) أسبق في الزمن الذي بدأت فيه ، ولزالت عنها مبكراً عصورها الوسطى المظلمة ، ولأصابها من الحضارة والتقدم ما أصاب الأندلس خلال عيشها في رِحَاب الإسلام[3] .

أظهر رأيه في هذه المعركة العديد من الكتاب الغربيين ، الذين ادركوا شيئاً من روعة الاسلام وصدق عقيدته ورفعة شريعته وسمو مبادئه وجمال روحه . أوهم – على الأقل – لاحظوا واقع تاريخه ، وقد رأوا ما أثبته وبثه في كل أرض حلَّها من الخير والنور وما جلبه لها من الحضارة والانسانية الكريمة . فاعتبروا نتيجة « بلاط الشهداء » نكبة كبيرة أصابت أوروبا وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة

---

(١) « العوامل السوقية والتعبوية » ، ٥/١٢٥ .

(٢) *The decline and fall of the Roman empire*, Gibbon, III, 223.
كذلك : العرب والاسلام ، ١٣٣ .

(٣) راجع : الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٢٥ .

وراء البَرّت رغم ما أصاب ذلك من توقف لظروف خارجية وداخلية ، فإن الأحوال العامة في الشرق وما كان في الأندلس من اختلاف[1] أدّى لمثل هذه النتائج .

كان الالتزام بالاسلام دوماً – في الأندلس وفي عموم التاريخ الاسلامي في حِقَبِه المتطاولة حتى اليوم ، وهي كذلك للمستقبل – قِوام الخير والنصر والسعادة في الدارين . أُصيب المسلمون يوم تخلّوا عن أيّ جانب أو أمر من أمور الإسلام . ولقد نهى الله – جلّت قدرته – عن الخصومات ، واعتبرها جاهلية . فالخير في طاعة الله والاجتماع على دينه والأخذ بشريعته ﴿ وأطيعوا اللهَ ورسولَه ولاتنازعوا فتفشلوا وتَذْهَبَ ريحكُم واصبروا إن اللهَ مع الصابرين ﴾[2]

جدول بأسماء الولاة

استمر عهد الولاة اثنتين وأربعين سنة ، حكم الأندلسَ خلالها عشرون والياً. وهذا ثَبَتٌ بأسماء هؤلاء الولاة[3] ، بعد الفتح الذي قاده موسى وطارق وآخرون .

١ – عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر . تولى الحكم في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ (٧١٤ م). دامت ولايته سنة وعشرة أشهر ، حتى رَجب سنة ٩٧ هـ . استُشهد مقتولاً بالأندلس[4] . كان مستقره في إشْبِيلِيَة : العاصمة .

٢ – أيوب بن حبيب اللَّخْمي ، ابن أخت موسى بن نُصَيْر . تولى الحكم سنة ٩٧ هـ (٧١٦ م) . ولايته ستة أشهر ، حتى ذي الحجة سنة ٩٧ هـ[5] . في أيامه – أو أيام الحر ، بعده – نقلت العاصمة إلى قُرْطُبَة[6] .

---

(١) العبر ، ٢٥٦/٤ ، ٢٦٠ . (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١ ، ٢٣٨) .

(٢) الآية ٤٦ من سورة الأنفال .

(٣) عن هؤلاء الولاة وتسلسل ولاياتهم ، راجع : العبر ، ٢٥٦/٤ – ٢٦١ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١ – ٢٣٨) ؛ نفح ، ٢٩٨/١ – ٢٩٩ ، ٤٨٠ ، ١٤/٣ – ٢٦ ؛ أعمال الأعلام ، ٦/٢ – ٧ .

(٤) جذوة المقتبس ، ٢٨٩ (رقم : ٦٥١) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٢٧٦/١ (رقم : ٨٢٥) ؛ بغية الملتمس ، ٣٨٦ (رقم : ١٠٩٨) ؛ نفح الطيب ، ٢٨١/١ ؛ البيان المغرب ، ٢٣/٢ ؛ أعلاه ، ١٣٢ ، ١٥٩ .

(٥) نفح الطيب ، ١٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٥/٢ ؛ جذوة المقتبس ، ١٧١ (رقم : ٣١٥) .

(٦) أعلاه ، ١٣٦ .

٣ ــ الحر بن عبد الرحمن الثقفي . تولى الحكم شهر ذي الحجة سنة ٩٧ هـ (٧١٦ م). ولايته سنتان وثمانية أشهر أو أقل ، حتى رمضان سنة مئة هجرية[١] .

٤ ــ السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني . تولى الحكم في شهر رمضان سنة مئة هجرية (٧١٩ م) . ولايته سنتان وثلاثة أشهر ، حتى شهر ذي الحجة سنة ١٠٢ هـ . استُشهد جنوبي فرنسا[٢] .

٥ ــ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ولايته الأولى) . تولى الحكم سنة ١٠٢ هـ (٧٢١ م) . ولايته شهران[٣] .

٦ ــ عَنْبَسَة بن سُحَيْم الكلبي . تولى الحكم في شهر صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م) . ولايته أربع سنين وستة أشهر ، حتى شعبان سنة سبع ومئة . استُشهد جنوبي فرنسا[٤] .

٧ ــ عُذْرَة بن عبد الله الفهري . تولى الحكم سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) . ولايته شهران[٥] .

٨ ــ يحيى بن سَلَمَة الكلبي . تولى الحكم في شهر شوال سنة ١٠٧ هـ (٧٢٦ م) . ولايته سنتان وستة أشهر[٦] .

٩ ــ حُذَيْفَة بن الأحْوَص القيسي (الأشْجَعي) . تولى الحكم في شهر ربيع

---

(١) نفح الطيب ، ٣/١٤ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٥ ؛ أعلاه ، ١٣١ ، ١٣٦ .

(٢) جذوة المقتبس ، ٢٣٦ (رقم : ٤٩٨) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١/١٩٥ (رقم : ٥٨٦) ؛ بغية الملتمس ، ٣١٦ (رقم : ٨٣٩) ؛ نفح الطيب ، ٣/١٤ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٦ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلسي ، ٤١٨ ؛ أعلاه ، ١٨٥ ــ ١٨٧ .

(٣) نفح الطيب ، ٣/١٥ ــ ١٦ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٧٤ (رقم : ٦٠٣) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١/٢٥٦ (رقم : ٧٧٢) ؛ بغية الملتمس ، ٣٦٥ (رقم : ١٠٢١) ؛ التكملة ، ١/٣٥٤ ؛ الذيل والتكملة ، ٦/٣٢٧ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ٣٢٩ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٩٥ ؛ المقتبس ، ٢/١٤٠ ؛ أعلاه ، ١٣٢ ، ١٩٣ وبعدها .

(٤) جذوة المقتبس ، ٣١٩ (رقم : ٧٤٠) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١/٣٤٤ (رقم : ١٠١٣) ؛ بغية الملتمس ، ٤٣٢ (رقم : ١٢٥٩) ؛ نفح الطيب ، ٣/١٦ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٧ ؛ أعلاه ، ١٩٠ ــ ١٩١ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/١٧ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٧ ؛ أعلاه ، ١٨٠ .

(٦) نفح الطيب ، ٣/١٧ ، ١٨ ؛ البيان المغرب ٢/٢٧ .

الأول سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) . ولايته ستة أشهر أو أكثر[١] .

١٠ ــ عثمان بن أبي نِسْعَة الخَثْعَمي . تولى الحكم في شهر شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م) . ولايته خمسة أشهر[٢] .

١١ ــ الهيثم بن عَدِي (عبيد) الكلابي (الكِناني) . تولى الحكم في المحرم سنة ١١١هـ (٧٢٩ م) . ولايته خمسة أشهر أو أكثر[٣] .

١٢ ــ محمد بن عبد الله الأشْجَعي . تولى الحكم سنة ١١١ هـ (٧٣٠ م) . ولايته شهران[٤] .

١٣ ــ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ولايته الثانية) . تولى الحكم في شهر صفر سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) . ولايته سنتان وثمانية أشهر ، حتى رمضان ١١٤ هـ (تشرين الأول = اكتوبر ٧٣٢ م) . **استُشهد في وقعة « بَلاط الشهداء »**[٥] .

١٤ ــ عبد الملك بن قَطَن الفِهْري (ولايته الأولى) . تولّى الحكمَ حول شهر شوال سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) . ولايته سنتان[٦] .

١٥ ــ عُقْبَة بن الحجاج السَّلُولي . تولى الحكم في شهر شوال سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) . ولايته خمس سنوات وشهران أو أكثر ، حتى سنة ١٢١ هـ أو حتى شهر صفر سنة ١٢٣ هـ . **استُشهد خلف جبال البُرْت**[٧] .

١٦ ــ عبد الملك بن قَطَن الفِهْري (ولايته الثانية) . تولى الحكم في شهر صفر

---

(١) نفح الطيب ، ٣/١٨ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٧ .

(٢) نفح الطيب ، ٣/١٨ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٨ .

(٣) نفح الطيب ، ٣/١٨ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٨ .

(٤) التكملة ، ١/٣٥٤ (رقم : ٩٥٢) ؛ الذيل والتكملة ، ٦/٣٢٧ ؛ نفح الطيب ، ٣/١٨ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٨ .

(٥) الحاشية رقم ٣ في الصفحة السابقة ؛ أعلاه ، ١٩٣ وبعدها .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ١/٢٦٩ (رقم : ٨١٤) ؛ نفح الطيب ، ٣/١٨ ، ١٩ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٨ ، ٣٠ ؛ أعلاه ، ٢٠٣ – ٢٠٤ .

(٧) جذوة المقتبس ، ٣١٩ (رقم : ٣٩١) ؛ بغية الملتمس ، ٤٣٢ (رقم : ١٢٥٨) ؛ نفح الطيب ، ٣/١٩ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٩ ؛ أعلاه ، ٢٠٤ – ٢٠٦ .

سنة ١٢٣ هـ (٧٤١ م) . ولايته سنة واحدة وشهر واحد[١] .

١٧ – بَلْج بن بِشْر بن عياض القُشَيْري . تولى الحكم سنة ١٢٤ هـ (٧٤٢ م) . ولايته أحد عشر شهراً أو أقل[٢] .

١٨ – ثَعْلَبَة بن سَلامة العاملي . تولى الحكم سنة ١٢٤ هـ (٧٤٢ م) . ولايته عشرة أشهر أو أقل[٣] .

١٩ – أبو الخَطَّار حُسام بن ضِرار الكلبي . تولى الحكم في رجب سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) . ولايته أربع سنوات وستة أشهر أو أقل[٤] .

٢٠ – ثُوابَة بن سَلامَة الجُذامي . تولى الحكم في رجب – شعبان سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) . ولايته سنة واحدة أو أكثر[٥] .

٢١ – عبد الرحمن بن كَثير اللَّخْمي . تولى الحكم أوائل سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) . ولايته بضعة أشهر . نصبه أهل الأندلس « للأحكام خاصة »[٦] .

٢٢ – يوسف بن عبدالرحمن الفِهْري (آخر ولاة الأندلس) . تولى الحكم في ربيع الثاني سنة ١٢٩ هـ (كانون الثاني سنة ٧٤٧ م) . ولايته تسع سنوات وتسعة أشهر أو أكثر[٧] ، « جَدُّه عُقْبَة بن نافع صاحب إفْرِيقيَة وباني القَيْروان المجاب الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة ، ولهذا البيت في السلطنة بافريقية والأندلس نباهة . وذكر الرازي أن مولده بالقَيْروان ، ودخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبي عُبيدة الفِهْري عند افتتاحهم »[٨] . انتهت ولايته بعد وصول عبد الرحمن الداخل الى الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، حيث مبتدأ عهد الإمارة .

---

(١) راجع : الحاشية رقم ٦ في الصفحة السابقة .

(٢) نفح الطيب ، ٣/٢٠ ؛ البيان المغرب ٢/٣١ ؛ جذوة المقتبس ، ١٨٠ (رقم : ٣٣٦) .

(٣) نفح الطيب ، ٣/٢٢ ؛ البيان المغرب ، ٢/٣٢ .

(٤) نفح الطيب ، ٣/٢٢ ؛ البيان المغرب ، ٢/٣٣ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/٢٤ ؛ البيان المغرب ، ٢/٣٥ .

(٦) العبر ، ٤/٢٦١ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٨) ؛ البيان المغرب ، ٢/٣٥ .

(٧) نفح الطيب ، ٣/٢٥ ؛ البيان المغرب ، ٢/٣٥ .

(٨) نفح الطيب ، ٣/٢٥ .

ترك المسلمون لليهود حريتهم فى أن يسيروا أمورهم ، وفق أعرافهم وقوانيهم وكانوا يتقاضون فيما بينهم .

كانت الصلات بين المسلمون واليهود طيبة ، تسودها المودة ، واتخذ هؤلاء اللباس العربى وتحدثوا بالعربية ، وتمادوا فى استخدام الأسماء العربية ، وسمح المسلمون لهم بملكية الأرض ، وامتهن عدد منهم صناعة الورق ، على إن أهم مجال عمل فيه اليهود هو التجارة ، وأهم تجارة اشتهروا بها هى تجارة الرقيق وخاصة الصقالبة .

وكانت لليهود مشاركة واضحة فى الحياة الثقافية فى عصر الخلافة وما تلاه من عصور ، وكثير من تراث الحضارة الإسلامية بالأندلس ، جرى نقله إلى اللغة اللاتينية ، على أيدى مترجمين يهود .

الفصل العاشر

عصر الإمارة الأموية

١ - عبد الرحمن الداخل :

فى سنة ١٣٢/ ٧٥٠ وقعت معركة الزاب بين الأمويين والعباسيين وانتهت إلى هزيمة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية الذى هرب إلى الشام ، وتابع هربه إلى مصر ، حيث لقى مصرعه فى قرية بصعيدها .

لم يكتف العباسيون بأن أسقطوا دولة خصومهم ، إنما هم تتبعوهم أينما ذهبوا ، ولم يراعوا فى ذلك عهداً ولا رحماً ولا ديناً ، ولم يجد بنو أمية إلا أن يجدوا فى الهرب ، حيث أوسعهم الله من أرضه .

كان من جملة هؤلاء الأمويين فتى صغير ، يدعى عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام ، استطاع بعد مغامرات مثيرة ، أن ينجو بحياته إلى بلاد المغرب ، وبعد أن تقلب فى قبائل البربر ، استقر فى نفزة الذين يسكنون قرب سبتة .

إبان مقامه فى المغرب فكر عبد الرحمن فى أن يعبر إلى الأندلس ، ويجدد لبنى أمية دولة بها ، فبعث مولاه بدراً إلى هناك ، ليتحقق من إمكان تحقيق هذه الفكرة .

مرت الأندلس ، منذ أن تم فتحها بمرحلة قلقة مضطربة ، وكان لنأيها عن مركز الدولة الإسلامية أثره فى أن اشتعلت بها حروب العصبيات بين العرب والبربر ، ثم بين العرب أنفسهم . وأدت هذه الحروب إلى نتائجة مدمرة على فتوح العرب وراء البرتات ، كما أدت أيضاً إلى ظهور نواة المقاومة النصرانية فى الجبال الشمالية الوعرة ، ونشأت لها دولة نصرانية صغيرة ، امتدت مساحتها امتداداً واسعاً ، خلال السنوات الأخيرة من عصر الولاة .

استطاع بدر إبان مقامه فى الأندلس ، أن يتصل بالموالى الأموية وكان عددهم كبيراً ، كما اتصل باليمانية ، وكانوا قد أصيبوا بضربات قاسية من القيسية ، ويسعون إلى أخذ ثأرهم ، ولما أتم تمهيد الأمر لسيده عاد إلى بلاد المغرب .

فى إحدى أمسيات ربيع الآخر ١٣٨/ سبتمبر ٧٥٥ ، وصل عبد الرحمن إلى ثغر المنكّب Almuñecar ، وهرع إليه موالى الأموية ووجوه أهل اليمن ، فتغلب على البيرة ، وأتى خبره إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس ، وكان فى الثغر يطارد بعض الثوار هناك ، فأسرع إلى قرطبة ، ودارت مراسلات بينه وبين عبد الرحمن ، ولم يك بدمن الصدام المسلح .

دارت المعركة بين الفريقين يوم الأضحى ، عند موضع يعرف بالمسارة قرب قرطبة ، وانتهت بانتصار عبد الرحمن ، ودخل حاضرته فى يومه ، ولحق يوسف وصاحبه الصميل بن حاتم الكلابى - رئيس القيسية - بماردة ، وأخذا إلى طليطلة ، وسار عبد الرحمن إليها ، وضرب حصاره عليها ، إلى أن تداعى الطرفان إلى الصلح ، وعاد عبد الرحمن ومعه يوسف والصميل إلى الحضرة ، وبدأ عهد جديد فى تاريخ الأندلس .

كان عبد الرحمن يشعر بأنه غريب عن هذه البلاد ليست له عصبية يعتمد عليها ، لذا انصرف إلى تشجيع أهل بيته الأمويين على الوفود إليه ، فأتاه عدد كبير منهم ، واستعمل بعضهم فى مناصب الدولة ، كما استعان بمواليهم ، وسوف يصبح هؤلاء الموالى عصب الحكومة الأموية وسنادها ، وصارت أسرائهم - فيما بعد - تتوارث مناصب الوزارة والقيادة والحجابة .

فى الوقت نفسه لم يأمن عبد الرحمن جانب العرب ، وخاصة اليمانية منهم ، وكان هؤلاء يشعرون بأنهم أصحاب فضل عليه ، وحين انحرف عنهم،

قاموا بعدة ثورات ضده ، وتحالف بعضهم مع خصومه من العباسيين والفرنجة . لذلك استعان عبد الرحمن بالبربر ليوازن بهم الأجناد العرب ، كما استعان بالصقالبة الذين كان يؤتى بهم صغاراً من أنحاء أوربا وينشئون نشأة إسلامية ، وتصبح لهم دربة بأساليب القتال وخبرة ، وشكلوا - بعد - الحرس الخاص بالأمير .

خلال عهده الطويل نشبت عدة ثورات ، أولاها ثورة يوسف الفهرى الذى هرب فى سنة ١٤١/ ٧٥٩ إلى ماردة ، وحشد أنصاره ، وأقبل إلى إشبيلية ، ثم دار قتال عنيف بينه وبين جيش الدولة عند حصن المدوّر Almodavar ، وانتهت المعركة إلى هزيمته وقتله ، ثم قتل صاحبه الصميل وكان رهن الحبس بقرطبة .

كذلك واجه عبد الرحمن ثورات من جهة اليمانية ؛ أخطرها ثورة العلاء ابن مغيث اليحصبى من أشراف اليمن بكورة باجة ، وقد أدى به طموحه ، لأن ينحاز إلى بنى العباس ، فعبر البحر إلى إفريقية ، ومكث هناك يسيراً ، ثم عاد فى سنة ١٤٦/ ٧٦٣ ، ومعه سجل الخليفة المنصور ، ونزل بساحل باجة ، ورفع الرايات السود ، وأيدته اليمانية والفهرية ، وفزع عبد الرحمن إليه والتقى به فى قرمونة ، حيث دار قتال شديد ، أسفر عن انتصار عبد الرحمن ومصرع عنها .

أمر عبد الرحمن فاحتزت رأس عدوه ، وجعلت مع لواء المنصور فى سفط، وبعث به مع واحد من خاصته إلى مكة ، فوافق المنصور حاجًا ، فوضعه على باب سرادقه ، ويقال إن المنصور علق على ذلك بقوله : « الحمد لله الذى جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً » ، وبعد سنوات دعا المنصور خصيمه الأندلسى « بصقر قريش » .

واجه عبد الرحمن أيضًا ثورةً من قبل البربر تزعمها رجل من مكناسة ، اسمه شقْنا بن عبد الواحد ، ادعى فى ولد فاطمة الزهراء ، واستولى على قورية Coria وشنت برّية Santa María وغيرها من النواحى غربى الأندلس ، وابتنى لنفسه حصنًا دعاه شيطران ، وأعانته طبيعة الأرض التى تكتنفها الجبال ، فكان إذ أمن انبسط ، وإذا خاف صعد ، وأعيا أمره الدولة نحو عشر سنوات إلى أن اغتاله بعض أصحابه فى سنة ١٦١/ ٧٧٧ ، وأتوا برأسه إلى عبد الرحمن .

على أن أخطر ما واجه عبد الرحمن هو الغزوة التى قام بها شارلمان Charlemagne (٧٦٨ ـ ٨١٤م) ملك الفرنجة إلى الأندلس فى سنة ١٦١/ ٧٧٨، ولو قدر لهذه الغزوة النجاح ، لصار للأندلس شأن آخر .

توافد إلى شارلمان عدد من الثوار العرب ، وعلى رأسهم سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى ، ولدى اتفاق الطرفين ، عبر شارلمان بجيوشه إلى إسبانيا ، واستولى فى طريقة على بنبلونة فى بلاد البكشنس ، وتقدم إلى سرقسطة . غير أن حملته تعثرت أمام أسوارها ، وفى تلك الأثناء أتته الأخبار بأن السكسون شقوا عليه عصا الطاعة ، فرفع الحصار عن سرقسطة ، واتخذ أهبته للعودة ، ففتك البشكنس بمؤخرة جيشه فى شعب رونسسفال Roncesvalles ، حيث قتل هرودلاند Hruodland (رولان) وعدد من كبار القادة الفرنجة ، وقدخلدت هذه المعركة « أغنية رولان » La Chanson de Roland الذائعة الصيت بين ملاحم العصور الوسطى .

فى الوقت نفسه كان هناك ثائر آخر ؛ هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى وقد جدد فعل العلاء بن مغيث ، فعبر البحر إلى إفريقية ، ثم عاد بجيش من البربر ، ونزل بساحل تدمير فى سنة ١٦٢/ ٧٧٨ ودعا لبنى العباس ، وسار إليه عبد الرحمن وحرق سفنه ، وتعقبه فى جبال بلنسية Valencia إلى أن اغتاله بعض أصحابه ، وبعثوا برأسه إلى الأمير .

نتساءل هل يوجد خيط يربط بين ثوار يدعون للخليفة العباسى ، وبين ثوار يدعون ملك الفرنجة ، والهدف فى النهاية واحد .

بعبارة أخرى هل يوجد اتفاق مشترك بين خليفة بغداد وبين ملك الفرنجة ، شارك فيه هؤلاء الثوار .

المصلحة ترجح وجود هذا الاتفاق ، لكنه ليس فى مصادرنا ما يؤكده ، والمصادر الفرنجية ـ وحدها ـ تشير إلى سفارات متبادلة بين آخن Aachen ـ حاضرة شارلمان ـ وبغداد ، وتشير أيضًا إلى هداياه ، ثم وضع بيت المقدس تحت حماية الملك الفرنجى .

صمت الرواية العربية تمامًا ، ووقوف الرواية الفرنجية عند حد ، يجعلنا نشك فى وجود اتفاق ، لكننا فى الوقت نفسه لا ننفيه .

هدأت الأحوال فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الرحمن ، بحيث إنه حين ولى ولده هشام فى سنة ١٧٢/ ٧٨٨ كانت أمور البلاد مستقرةً إلى حد كبير .

2 ـ خلفاء عبد الرحمن :

يعد هشام الذى دعى بالرضى من أفضل أمراء الأسرة الأموية وأكثرهم تقوىً ودينًا ، ويصفه ابن عبد ربه : « كان أحسن الناس وجهًا ، وأشرفهم نفسًا، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها فى حقها ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ولا زلة فى صباه » .

لم يكن هشام أكبر أبناء أبيه ، لذلك ما كاد يلى الإمارة ، حتى ثار ضده أخواه سليمان وعبد الله ولحقًا بطليطلة ، إلا أن هشامًا استطاع القضاء على هذه الثورة ، وتم الاتفاق على أن يعبر الأخوان بأولادهما إلى عدوة المغرب .

دخل هشام كذلك فى صراعات مع الفرنجة الذين نشطوا لأخذ معاقل المسلمين فى جبال البرتات ، وكذلك الجلالقة ، واستطاع قواد هشام وخاصة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث أن يضعوا حداً لنشاط هؤلاء .

على أن أهم الأحداث التى ترتبط بعهد الأمير هشام ، هو دخول مذهب الإمام مالك رضى الله عنه (ت ١٧٩هـ) إلى الأندلس ، وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام (ت ١٥٧هـ) ، لكن عدداً من علماء الأندلس ، وعلى رأسهم الغازى بن قيس وزياد بن عبد الرحمن شبطون وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى ، كانوا قد تلقوا العلم ، بالمدينة المنورة على يدى الإمام مالك ، وشرعوا بعد عودتهم فى نشر مذهبه ، وإلى يحيى بن يحيى بالذات تنسب أشهر روايات الموطأ ، وهو الكتاب الأم فى فقه مالك .

وإذا كان مذهب مالك سوف يضحى بعد سنوات هو مذهب جمهور أهل الأندلس ، فإن فقهاءه صار لهم نفوذ كبير على الأمير هشام ، وكان هو بدوره يوقرهم ويحترمهم ، ولم يكن يقرر أمراً من أمور الدولة ، إلا بعد أن يأخذ مشورتهم ورأيهم .

مات هشام فى سنة ١٨٠/ ٧٩٦ وخلفه ولده الحكم ، ولدى ولايته عاود عماه سليمان وعبد الله الثورة عليه ، وتواطئا مع الفرنجة ، وبعد حرب امتدت عدة سنوات ، تمت هزيمة الأخوين وأعدم سليمان ، لكن الحكم عفا عن عبد الله وأصهر إليه ، وسوف يصبح بنوه فيما بعد من كبار رجال الدولة .

ويرتبط عهد الحكم بحدثين هامين ، هما استيلاء الفرنجة على برشلونة وتأسيس الثغر الإسبانى La Marca Hispánica ، وثورة الربض .

لم يغمض الفرنجة الطرف بعد النكسة ، التى أصيبوا بها فى شعب رونسسفال عن معاودة غزو الأندلس ، وتأمين حدودهم مع المسلمين فى جبال

البرتات ، وقد لاحظنا أنهم كانوا يفيدون دائماً من الثورات المناهضة للدولة الأموية ، من أجل أن يحققوا أهدافهم هذه ، وشجعوا عليها ، لذا تردد المسلمون بغزواتهم إلى أربونة وقرقشونة ، وغيرهما من معاقل الفرنجة ، كما ترددت هذه الغزوات إلى الجلالقة الذين كانوا يحالفون الفرنجة فى بعض الأحيان .

إنتهز شارلمان فرصة الثورة التى قام بها سليمان وعبد الله ولدا عبد الرحمن الداخل ، فسير جيشاً بقيادة ولده لويس ، فاستولى على جرندة Gerona ، وأوغل فى الثغر الأعلى ، وحاصر وشقة فى سنة ١٨١/ ٧٩٧ ، ثم ارتد عنها عندما علم بمسير الأمير الحكم إليه .

عاود شارلمان المحاولة ، وعقد حلفاً مع أذفونش الثانى Alfonso II ملك أشتورياس Asturias وجليقية (٧٩١ ـ ٨٤٢) ، وأرسل ولده لويس مرة أخرى إلى مدينة برشلونة ، فحاصرها عدة شهور ، ولم يستطع الحكم أن يمدها بعون ، فسقطت فى سنة ١٨٥/ ٨٠١ ، وجعلها الفرنجة قاعدة ، لما عرف بالثغر الإسبانى أو القوطى ، وهو نواة إمارة قطلونية Cataluña فى العصور التالية ... وبذا انحدرت حدود الأندلس مسافة بعيدة جنوبى جبال البرتات .

واجه الحكم إلى جانب ذلك ثورات من جهة المولدين ، وكانت توجد منهم عصبيات قوية فى مناطق الثغور ، وجدت الدولة من الأجدى مسالمتها ، والاعتراف بنفوذها فى هذه الأصقاع البعيدة ، خشية أن تتحد مع النصارى الذين كانوا يتربصون بالمسلمين فى ناحية الشمال . لكنها كانت تتدخل أحياناً عندما يعلن أحد هؤلاء المتنزين استقلاله ببعض المدن والقلاع ، أو يتحالف مع أعدائها ، وكثيراً ما كانت تضرب بين هؤلاء الثوار ، أو تعين بعضهم ضد بعض .

أشهر هذه الأسرات المولدية خلال القرن الثالث الهجري بنو قسى ، بنو عمروس ، بنو شبريط (الطويل) .

على أن أخطر ما واجه الدولة من جهة المولدين هى الثورة التى اندلعت داخل العاصمة نفسها .

كان المسلمون الجدد فى اعتناقهم الإسلام ، يتعصبون لها أحياناً تعصباً ساذجاً وجاهلاً ، ويأخذون على الدولة التهاون فى إقامته ، ويسببون له متاعب ، وبقدر ما يتضاءل نصيب المؤمن من الثقافة ، بقدر ما يكون سهل الإنقياد . وقد استثمر الفقهاء فى المولدين هذه الناحية ، من أجل أن ينتصفوا من الأمير الحكم الذى حرمهم نفوذهم الذى كان لهم فى عهد أبيه ، وزعموا انصرافه عند دينه إلى دنياه ، وبذا صار المولدون وقود هذا الصراع بين الحكم والفقهاء .

وجدت دعاوة الفقهاء ثمراتها عند العامة ، الذين صاروا يتندرون على الحكم وينادونه عند انقضاء الأذان ويصفقون : « الصلاة يا مخمور الصلاة » ولم يتردد الحكم فى البطش بكل من وقع فى يديه منهم .

فى سنة ٢٠٢/ ٨١٨ جرى احتكاك بين العام وبين أحد مماليك الأمير ، ترتب عليه أن ثار أهل الربض (أى الضاحية الجنوبية من قرطبة) ، ثم تابعته سائر الأرباض ، وانحاز الحكم وجنوده إلى قصره ، فحاصرته العامة وكادوا يفتكون به ، لكنه وطن نفسه على الموت أو الظفر بهم ، وأمر ابن عمه عبيد الله البلنسى وحاجبه عبد الكريم بن مغيث ، فثلما فى السور ثلمةً ، واخترقا مع قطيع من الجند جموع الثوار ، وأضرما النار فى بيوتهم ، فدب الذعر فى صفوفهم ، وانقلبوا إلى دورهم ، وأحدق الجنود بهم من كل ناحية ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة وأسروا عدداً كبيراً .

بعد سحق الثورة أمر الحكم ، فصلب ثلثمائة من وجوههم ، واستمر

النهب فى الربض الجنوبى والتحريق ثلاثة أيام ، ثم أشار البعض على الأمير بالعفو عنهم ، فقبل على أن يخرجوا من قرطبة ، فخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأمر الحكم بهدم الربض ، فصار مزرعةً ولم يعمر أبداً فى مدة بنى أمية .

تفرق أهل الربض فى أقطار الأندلس خصوصاً طليطلة ، كما تفرقوا أيضاً خارج الأندلس خصوصاً المغرب فلحقوا بفاس ، وكان المولى إدريس بن إدريس بسبيل تأسيسها فسكنوا عدوة الأندلسين .

على أن أهم طوائف الأندلسيين المهاجرين كانت تلك الطائفة التى ارتحلت إلى الإسكندرية ، وكانت مصر إذ ذاك فريسةً للحرب الأهلية بين الأجناد العرب ، فانتهز الأندلسيون الفرصة ، واستولوا على الثغر ، وأسسوا ما يشبه جمهورية هناك ، واستمرت حالهم هكذا ، إلى أن قدم عبد الله بن طاهر ابن الحسين ـ قائد الخليفة المأمون ـ فى سنة ٢١٠/ ٨٢٥ فأخمد الفتنة ، وحاصر الإسكندرية فى سنة ٢١٢/ ٨٢٧، واضطر الأندلسيون إلى طلب الأمان، فأجابهم على أن يغادروا المدينة ، فغادروها ـ بعد أن تلكئوا حيناً ـ إلى إقريطش (كريت) ، فملكوها ، وبقوا بها حتى سنة ٣٥٠/ ٩٦١ ، فعادت مرة ثانية إلى الروم .

لم يمتد العمر بالحكم (الربضى) طويلاً بعد الهيج ، فقد مات فى سنة ٢٠٦/ ٨٢٢ ، ليخلفه ولده عبد الرحمن الذى عرف فيما بعد بالأوسط .

يعد عهد عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦/ ٨٢٢ ـ ٢٣٨/ ٨٥٢ أزهى عهود الإمارة الأموية ودعى « بأيام العروس » ومع أن الفتن لم تنقطع فى ذلك العهد، إلا أن عبد الرحمن استطاع بحسن سياسته أن يخمدها الواحدة تلو الأخرى ، وعليه فقد نجح فى إنهاء الفتنة التى وقعت بين القيسية واليمنية فى

تدمير ، ودامت عدة سنوات ، كما استطاع أن يرد طليطلة وماردة إلى الطاعة، ونجح قواده فى صوائفهم التى توجهت ضد الفرنجة ، فمنعتهم من اجتياز حدود الثغر القوطى ، وهزمتهم عند بنبلونة فى سنة ٢٠٩/ ٨٢٤ ، وتوجهت حملات تأديبية إلى الجلالقة ، قادها عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

على أن أهم الأحداث السياسية فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، هو الغزوة التى قام بها الفايكنج لغربى الأندلس .

اجتاح الفايكنج (النورمان أى الشماليون) أقطار أوربا خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وكانت الأندلس من جملة هذه الأقطار .

أطلق المسلمون على هؤلاء الغزاة اسم المجوس وأحيانًا الأردمانيين . وظهروا لأول مرة فى الأندلس فى سنة ٢٢٩/ ٨٤٣ ، حين أتوافى ثمانين مركبًا ، ورسوا فى مياه أشبونة Lisboa ، ثم انتقلوا منها إلى قادس Cádis فشذونه ، واخترقوا نهر الوادى الكبير إلى إشبيليه فاستولوا عليها ، وأمعنوا فى أهلها سفكًا ونهبًا .

عندما ترامت هذه الأنباء إلى الأمير ، أرسل جيشًا بقيادة نصر الخصى ، التقى بهؤلاء لدى طليطلة قرب إشبيلية ، وهزمهم وأرغمهم على الارتداد بسفنهم إلى أشبونة ، ثم لحقوا ببلادهم ، وقد أغدق الأمير على قائده نصر ، لنجاحه فى تحقيق أهداف الدولة .

كانت هذه الغزوة دافعًا لعبد الرحمن ، من أجل أن يوجه عنايته لبناء أسطول قوى ، فأنشأ دورًا لصناعة السفن فى عدة مرات مرافئ أندلسية ، ولم تمض سنوات حتى صار للأندلس أسطولان قويان ، أسطول أطلسى مركزه أشبونة وأسطول متوسطى مركزه ألمرية Almería .

أضحت للأندلس مكانة دولية مرموقة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، ونشأت علاقات دبلوماسية مع أقطار أخرى خارجها ، فأرسل ثيوفيل Theophilus ملك الروم (٨٢٩ ـ ٨٤٢م) سفارةً إلى الأمير فى سنة ٢٢٥/ ٨٤٠ ، وسأله الحلف ضد العباسيين عدوهما المشترك ، كما سأله العون ضد المسلمين فى إقريطش وصقلية . ومع أن إجابة عبد الرحمن التى حملها الشاعر الغزال كانت فى مجملها وديةً ، إلا أن لم يستجب لطلب ملك الروم فى حربه ضد إخوانه المسلمين ، بل إنه وصفهم فى رسالته ، بأنهم مجاهدون فى سبيل الله .

كذلك أوفد عبد الرحمن الغزال فى سفارة أخرى إلى ملك المجوس ببلاد الدنمارك فى سنة ٢٣٢/ ٨٤٦ ، حيث لقى حفاوةً من الملك والملكة ، وتردد صدى ذلك فى أشعاره .

فى عهد عبد الرحمن أيضًا استقرت قواعد الدولة الأندلسية فكان لكل نشاط من أنشطة هذه الدولة خطّة (تقابل الوزارة الآن) ، ويرأس الجميع الحاجب (يقابل رئيس الوزراء الآن) ، ويجتمع بسائر الوزراء فى دار خاصة ، دعيت ببيت الوزارة ، حيث يجلسون بترتيب معين ، لكل واحد وسادة ، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من هذا البيت ، وجرت العادة على أن يختص الموالى بمناصب الوزارة ، وإن شاركهم العرب أحيانًا ، وكان لعنصر الوراثة هنا أثره فى المحافظة على تقاليد عريقة فى الحكم وفى تحقيق الاستقرار .

إلى جانب الوزراء كان هناك القضاة ، وكبيرهم يدعى بقاضى الجماعة ، ومستقره قرطبة ، وهو الذى يعين قضاة المدن الأخرى ، وكانت له مكانة كبيرة عند الأمير .

كما نشأت بين الفقهاء خطة المَشْوَرة ، وهى هيئة مرجعية ، يستند إليها الأمير ، إذا أهمه أمر ما ، وصار فى حاجة إلى رأى الشرع بخصوصه ، وأشهر

4 - الفتنة الكبرى وعمر بن حفصون(*):

لم يكن قد مضى عشرون عامًا على إخماد فتنة (الشهداء) بقرطبة ، حتى ضجت بلاد الأندلس جميعها بثورة ، دعيت بالفتنة الكبرى ، استغرقت نحو ستين سنة من جهد الدولة ، وشاركت فيها عناصر المجتمع الأندلسى جميعها ، واتسع مداها ، حتى شملت البلاد جميعها ، وأضحى سلطان الدولة لا يتعدى فى أحيان كثيرة أسوار الحضرة ، وأتيحت الفرصة لممالك الشمال النصرانية ، لأن تتوسع على حساب المسلمين .

ومما يجدر ملاحظته أن غالب المؤرخين الأندلسيين ، لم يمدونا بمعلومات وافية عن أسباب هذه الثورة على إننا نستطيع أن نقف من النصوص التى وردت فى بعض المصادر على هذه الأسباب .

شهدت بلاد الأندلس خلال القرن الثالث الهجرى ، وخاصةً فى عهد الأمير محمد (٢٣٨/ ٨٥٢ - ٢٧٣/ ٨٨٦) سنوات متتالية ، سادها القحط واضطراب عناصر الطبيعة ، مما ترتب عليه هلاك كثير من الناس أو هجرتهم من البلاد .

كانت سياسة الدولة تجاه هذه الأزمات لا تنم عن الحرص على معالجتها وتخفيف وطأتها ، وكان لهذه السياسة تأثير بالغ على المولدين والنصارى المعاهدين ، لأنهم كانوا كثرة عناصر المجتمع المنتجين . ولم تقف الدولة عند هذا الحد ، فقد واصلت جباية العشور وغيرها من أموال ، واستخدمت وسائل عنيفة فى هذا المجال .

(*) لم يطلق على هذه الفتنة فى مصادرنا تعبير محدد ، واقتبسنا هذا التعبير من محمد عبد الله عنان فى كتابه « دولة الإسلام فى الأندلس » .

على أن أكبر من أساء إلى صورة الدولة إزاء أهل البلاد ، هو هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد الأثير ، وتتفق النصوص فى حملتها عليه ، وتذهب إلى سوء سيرته فى غير موضع .

زاد الأمر سوءاً موقف القبائل العربية من الأجناد ، وخاصة أهل إلبيرة ، وكثرتهم شامية قيسية ، فقد تذمر هؤلاء لانصراف الدولة عنهم إلى غيرهم من أجناد مرتزقة وصقالبة ، وفى الوقت نفسه لم يعد ثمة مبرر ، لأن يحصل هؤلاء من أهل البلاد على ثلث أموالهم ، خاصة بعد أن انتشر الإسلام بينهم ، وهكذا دخل العرب فى صراع ضد الدولة ، وضد المولدين والمستعربين جميعاً .

من بين هذه الأسباب موقف الفريق الناقم من النصارى المعاهدين الذين أشعلوا فتنة (الشهداء) بقرطبة ، فقد كانوا يتحينون الفرصة ، لإثارة الصعاب ضد الدولة ، والاشتراك فى الحركات المناهضة لها .

كذلك لم يتوان ملوك النصارى فى إعانة الثوار الخارجين على الدولة الإسلامية بالأندلس ، خصوصًا فى مناطق الثغور ، بل ارتبطوا مع بعضهم بصلات المصاهرة وأفادوا من هذا كله ، فاتسعت حدود دولهم ، الأمر الذى دفع أحدهم لأن يتسمى - فيما يذهبون - بالكبير El Magno ويتخذ لنفسه لقب الإمبراطور .

تلك هى الأسباب الحقيقية التى أدت إلى الفتنة الكبرى ، ولا نغفل دور البيئة ، فالبيئة الأندلسية ، بما فيها من بنية أرض تناسب الحروب الصغيرة ، وما فيها من جبال شاهقة وهضاب ووهاد ، وانقطاع بعض أقاليمها ، واكتفائها بنفسها لآماد طويلة ، فضلاً عن حصانة المدن ووفرة القلاع ، وما طبع عليه الناس نتيجةً لذلك ، من صلابة وصبر وعناد ... كان هذا كله من الأسباب المشجعة على قيام الفتنة ، واستطالتها سنوات طويلة .

نركز هنا فى حديثنا على كبير الثوار بالأندلس ... عمر بن حفصون .

لقيت ثورة ابن حفصون اهتمامًا خاصًا من المؤرخين الفرنج ، وعدها بعضهم ثورة دينية وطنية ضد غزاة عملوا على استعباد الشعب الإسبانى ، وهو ادعاء يجانبه الصواب ، لأن هذه الثورة نشأت عن أسباب طارئة ، لا تعود فى أصولها إلى السيادة الإسلامية ، وكانت شخصية ابن حفصون عنصراً أساسياً فى إضرامها ، وحددت وفاته بداية النهاية لها .

ينتمى عمر بن حفصون إلى أسرة من أصل قوطى ، أسلم أحد أجداده ، فدانت ذريته بالإسلام ، لكنهم كانوا يسرُّون النصرانية .

تذكر الرواية العربية أن عمر نشأ سيء الخلق ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، فأقام بتاهرت فترةً ، وعاد إلى الأندلس فى سنة ٢٦٧/ ٨٨٠ ـ ٨٨١ .

كانت كورة رية Rejio تضطرم إذذاك بالثورة ضد الدولة ، فقد تعسف عاملها فى مطالبة أهلها ببقايا الخراج ، فانتهز عمر الفرصة واستمالهم إليه ، وارتحل ببعضهم إلى جبل بُبَشْتَر Bobastro ، واستقر بحصن رومانى قديم ، يقع على مقربة من السهل الكبير الذى يمتد حتى مدينة قرطبة .

لما فشل عمال الدولة فى مواجهة ابن حفصون ، توجه إليه الوزير هاشم بن عبد العزيز فى سنة ٢٧٠/ ٨٨٣ ونجح فى إنزاله من الحصن ، وقدم به إلى قرطبة ، وعفا الأمير محمد عنه ، لما رأى من شجاعته وألحقه بجيشه ، وأرسله مع ولده المنذر فى بعض حروبه ، وبعد عودة عمر إلى الحضرة ، عومل معاملةً سيئةً من صاحب المدينة ، فغادرها سراً إلى ببشتر وعاود العصيان .

فى سنة ٢٧٣/ ٨٨٦ مات الأمير محمد وولى ولده المنذر ، وفى عهده الذى دام سنتين بسط عمر بن حفصون سيطرته على كورة رية كلها ، وأثار فى

الأهلين من نصارى ومولدين روح العصبية ضد العرب ، فخرج إليه المنذر فى سنة ٢٧٤ / ٨٨٧ وحاصره ، إلا إنه مرض إبان الحصار ومات ، وخلفه أخوه عبد الله الذى انتقل إلى قرطبة مصطحباً جثمان المنذر .

يرتبط عهد الأمير عبد الله بازدياد خطر الفتنة ، فقد عم الانتقاض بلاد الأندلس ، حتى إن سلطان الدولة ، لم يكن ليجاوز قرطبة وأحوازها . وقد وجه عبد الله معظم جهوده إلى إخماد حركة ابن حفصون ، لأنه لم يكتف بكورة رية وما جاورها ، إنما كان هدفه أن يدخل قرطبة ، ويقضى على دولة بنى مروان ، ومن أجل ذلك ضم إلى جانبه عامة الثوار المولدين فى كوررية والبيرة وجيان Jáen ، واتصل بنصارى قرطبة وأتاه ولد قومسها شربند Servando بن حجاج ، واستعان به فى العيث بأرباض المدينة .

وبلغ من خطورة ابن حفصون أنه سعى للاتصال بالخلافة العباسية عن طريق إبراهيم بن أحمد الأغلبى أمير إفريقية ، رغبةً منه فى أن يضفى طابعًا من الشرعية على ثورته ، بيد أن اضطراب الأمور بإفريقية شغل الأغالبة عن تلبية رغبة ابن حفصون .

أما عن الأمير عبد الله فقد سعى للتودد إلى أهل قرطبة ونواحيها ، فأسقط بعض الضرائب عنها ، كما عمل على تحسين حال الفقراء والعامة ، وأظهر ميله إلى العرب ، وأقر سعيد بن جودى السعدى على كورة إلبيرة ، وقمع ثورة المولدين بإشبيلية ، وخلصت المدينة لإبراهيم بن حجاج وهو من العرب البلديين .

فى السنوات الثلاث الأولى لولاية الأمير عبد الله ، دارت بينه وبين عمر ابن حفصون عدة مناوشات ، تبادل الإثنان خلالها مدينة استجة الهامة ، التى تعد مفتاح العاصمة ، وجعل الأمير معسكره فى شقندة جنوبى قرطبة ،

واستطاع أصحاب ابن حفصون أن يصلوا إليها ، ويحرقوا خيمة الأمير بها . ويعلق دوزى على ذلك بأنه كان من الممكن أن تسقط قرطبة فى أيدى الثوار ، لأن النصارى لم يكونوا قد نسوا بعد شهداءهم الذين فقدوهم قبل أربعين سنة .

وقعت المعركة الأساسية عند حصن بلاى Polei فى ٢ من صفر ٢٧٨/ ١٦ من يونيو ٨٩٠ وكان أحمد بن محمد بن أبى عبده يقود جيش الدولة الذى بلغ عدده ثمانية ألفاً ، بينما كان مع ابن حفصون ثلاثون ألفاً ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الثائر ، وتراجعه إلى حصن بلاى ، ولكنه وجد معظم أصحابه قد انفضوا عنه ، ففارق الحصن وانسحب جنوباً ، وطارده الأمير عبد الله إلى معقله فى بيشتر ، ثم عاد إلى قرطبة .

تجلى الطابع الدينى لثورة عمر بن حفصون فى معركة بلاى ، فكان معه قسيسون يحرضون جنوده ، كما كان مع الأمير فريق من الفقهاء الأجلاء ، ومع ما كان لمعركة بلاى من أثر طيب فى نفوس المسلمين ، إلا أنها لم تمنع الثائر من المعاندة عدة سنوات ، وواصل المسلمون توجيه صوائفهم إليه ، وظل الفريقان يتجاربان دون نتيجة حاسمة .

فى سنة ٢٨٦/ ٨٩٩ طرأ تطور خطير على الصراع بين الحكومة الإسلامية وعمر بن حفصون إذ إنه أظهر النصرانية ، ولم يلبث أن اتصل بملك ليون فى الشمال ، كما اتصل بإبراهيم بن حجاج الثائر بإشبيلية .

كان إبراهيم بن حجاج قد استطاع أن يستقل بإشبيلية ، وساءت علاقته بالأمير عبد الله ، لأنه رفض أن يطلق ولده الذى أخذه رهينة عنده ، كما إن ابن حفصون وجد فى التحالف مع ابن حجاج سبيلاً ، لأن يعيد ثقة المسلمين به ، غير أن الهزيمة التى حلت بالحليفين فى العام التالى ، وإطلاق الأمير ولد ابن حجاج أنهيا هذا التحالف .

فى بداية عهد عبد الرحمن الناصر بدأ ابن حفصون يتصل بالفاطميين فى المغرب الأقصى ، فصارت سفنهم تبحر من العدوة إليه بالزاد والسلاح ، الأمر الذى دفع الناصر إلى الترصد لها ، وأحرق عدداً منها ، كما شحن مراكبه بالأسلحة والعدد والنفط ، وجعلها تتجول قرب الساحل ، لمراقبة ما يأتى من البر الآخر .

قاد عبد الرحمن فى أعقاب ولايته فى سنة ٣٠٠/ ٩١٢ عدة حملات ضد عمر بن حفصون ، واستخلص بعض حصونه فى كورتى إلبيرة ورية ، كما التقى به قرب طرُش Torrox وأنزل به الهزيمة .

نتيجةً للضربات العديدة التى وجهتها الدولة لعمر بن حفصون ، فإنه جنح إلى السلم فى سنة ٣٠٣/ ٩١٦ ، وأرسل إلى الناصر يتودد إليه ، وتدخل فى الوساطة بعض أصدقائه بقرطبة ، وتم عقد الصلح ، وبلغ عدد الحصون التى دخلت فى أمان ابن حفصون مائة واثنين وستين حصناً .

هيأت فرصة السلم لعبد الرحمن الناصر أن يعاود توجيه الغزوات إلى نصارى الشمال كما أخمد حركات بعض الثوار فى أنحاء متفرقة من الأندلس ، وفى هذه الأثناء كان المرض قد اشتد بعمر بن حفصون ، فصار يختلى بنفسه فى كنيسة بيشتر للتعبد ، ومات فى سنة ٣٠٥/ ٩١٨ ، ودفن تبعاً لطقوس أجداده .

خلف عمر بن حفصون فى معقله بيشتر ولده جعفر ، وتذهب بعض الروايات إلى أنه كان يسر الإسلام ، وعلى هذا تآمر عليه أصحابه فى سنة ٣٠٨/ ٩٢٠ وقتلوه ، وجعلوا مكانه أخاه سليمان .

نقض سليمان صلح أبيه مع الناصر ، فأرسل الأمير حملةً إليه فى سنة ٣١٤/ ٩٢٦ ، استطاعت أن تظفر به خارج بيشتر وقتل ، وجرى صلبه على

خشبة عالية بباب القصر فى قرطبة .

خلف حفص بن عمر بن حفصون أخاه سليمان ، وتابعه فى عصيانه فسار إليه الناصر فى سنة ٣١٥/ ٩٢٧ ، وشدد الحصار على بيشتر ، وبنى حصناً مقابلها ، ثم عاد إلى قرطبة .

ضاق الحصار على حفص ، فكتب إلى الناصر يستأمنه ، على أن يخرج من الجبل ، فوافق الأمير ، واقحم المسلمون بيشتر فى ٢٣ من ذى القعدة ٣١٥/ ١٧ من يناير ٩٢٨ ولما قدم حفص إلى قرطبة صفح عنه الناصر ، وصيره فى حاشيته ، ثم أرسل كتاباً إلى أقطار الأندلس بالفتح ، أمر بقراءته فى الجوامع .

فى المحرم من سنة ٣١٦/ مارس ٩٢٨ زار الخليفة عبد الرحمن الناصر وبصحبته ولده الحكم بيشتر ، وعمل على إزالة آثار الثورة بها ، ودخل مسجدها المهجور فصلى فيه ، وأتى بعظام عمر بن حفصون ، لترفع مع أشلاء ولده سليمان بقرطبة .

وكان لعمر بن حفصون ابنة تدعى أرخنتيا Argéntea ترهبت فى حياة أبيها ، وأقامت فى دير أنشأته داخل بيشتر ، وتاقت نفسها إلى الاستشهاد فاستفزت السلطات ، وفعلت ما سبق أن فعله (شهداء قرطبة) وأعدمت فى سنة ٩٣١م ورسمها النصارى قديسة .

الفصل الحادى عشر
عصر الخلافة الأموية

١ - الناصر والمستنصر :

ولى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإمارة ، بعد وفاة جده الأمير عبد الله فى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م ، وبولايته بدأ عصر جديد ، بلغت الأندلس خلاله ذروة مجدها ، وقد استمر هذا العصر ، حتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

لدى ولاية عبد الرحمن ، كانت البلاد ما تزال تعيش الفتنة الكبرى التى عمتها جميعها ، وكان على عبد الرحمن أن يضع حداً لها ، وكانت سياسته تجاه زعمائها تتسم بأقصى درجات العنف ، حتى يهلك الثائر ، أو يقر بطاعته ، فيبقيه الناصر حيث هو ، على أن يأخذ رهائنه ، وقد يكونوا بعض ولده ، وأحياناً كان يؤمنه ويستنزله من حصونه ، فيأتى إلى قرطبة ويكرمه ، وقد يصير فى قواده وكبار رجاله .

هكذا نجح الناصر فى أن يقضى على الثورة فى أرجاء الأندلس ، ودخلت جيوشه بيشتر فى سنة ٣١٥هـ، بطليوس Badajoz فى سنة ٣١٨ وطليطلة فى سنة ٣٢٠ هـ .

رغماً عن شغل الناصر فى سنوات حكمه الأولى بالفتنة الكبرى ، إلا أنه لم يغمض الطرف عن الأخطار التى كانت تتهدد بلاده من جهة الفاطميين فى المغرب جنوباً ، والممالك النصرانية فى إسبانيا شمالاً .

تطلع الفاطميون إلى أن يدخلوا المغرب الأقصى فى حوزتهم ، وكانوا يشعرون أنهم بسعيهم هذا لابد وأن يدخلوا فى صراع مع الأمويين بالأندلس ،

لأن الاستيلاء على المغرب الأقصى يعد تهديداً للوجود الأموى نفسه ، لذلك فكروا فى أن ينقلوا المعركة إلى شبه الجزيرة ، ولجئوا إلى تأييد الثوار الخارجين على بنى أمية ، وخاصةً عمر بن حفصون ، وصارت سفنهم تبحر من العدوة إليه، تحمل الميرة والذخيرة ، الأمر الذى دفع عبد الرحمن ، لأن يأمر بتعقب هذه السفن وإحراقها ، وأمر سفنه بالتجوال قرب السواحل لمراقبة العدوة المغربية .

لجأ الفاطميون إلى وسيلة أخرى ، هى أن يرسلوا بعض رجالهم إلى الأندلس ، من أجل الدعوة إلى مذهبهم ، ومن أجل التجسس على دولة خصومهم ، وكان هؤلاء الدعاة يتخفون فى هيئة التجار أو طلاب العلم ، وكان من بينهم فى مرحلة لاحقة الجغرافى الشهير ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ) ، على أن هؤلاء الدعاة لم ينجحوا فى مهامهم ، ورد الأمويون على الفاطميين ، بأن أرسلوا لهم بدورهم إلى بلاد المغرب جواسيس ، أعانهم فى مهامهم وجود جاليات أندلسية ، على طول الساحل المغربى ، تقيم منذ سنوات بعيدة ، وكانت على معرفة بأحوال البلاد .

تصاعد الموقف عندما أعلن عبد الرحمن نفسه خليفةً فى سنة ٣١٦/ ٩٢٩ ، وتسمى بالناصر لدين الله . وكان معنى إعلانه هذا ، أنه ينكر على الفاطميين إدعاءهم هذه الخلافة نفسها ، إذ لا يستقيم وجود أكثر من خلافة واحدة فى وقت واحد فى الفقه الإسلامى المعاصر .

أضحى لا مفر من الصدام المسلح ، وكان المغرب الأقصى هو الساحة التى شهدت هذا الصدام ، ومهد الناصر لذلك بأن عنى بأسطوله ، وابتنى دار صناعة فى الجزيرة الخضراء ، وابتنى كذلك استحكامات دفاعية لدى شواطئه .

عندما خرج موسى بن أبى العافية المكناسى على طاعة الفاطميين بفاس ، رحب الناصر بخروجه ، واستولى على مليلة فى سنة ٣١٤/ ٩٢٦ ، وسبتة فى

سنة ٣١٩/ ٩٣١ ، وبذا تحققت له سيادته على السواحل المغربية المواجهة لبلاده .

انصرف الناصر بعد ذلك إلى اصطناع القبائل البربرية المناوئة للفاطميين ، خاصةً زناتةً ، كما انصرف إلى اصطناع الأدارسة الذين كان الفاطميون قد طردوهم إلى حجر النسر بجبال الريف ، وبذا صار يخطب للناصر على المنابر من تاهرت إلى طنجة .

عندما ثار أبو يزيد فى الإباضية ، بعث الناصر إليه بأموال وأمداد ، فأقر بطاعته ودعا له ، وتبودلت السفارات بين الجانبين ، وظلت مساعدات الناصر ترد إلى هذا الثائر حتى قريب من نهاية ثورته فى سنة ٣٣٦/ ٩٤٧ .

فى سنة ٣٤٤/ ٩٥٥ رد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، بأن أرسل أسطوله من صقلية إلى ألمرية ، وهى القاعدة الأساسية للأسطول الأندلسى ، فدخلت السفن الميناء فجاءةً ، وأحرقت ما فيه من سفن .

فى المقابل أمر الناصر قائده غالب بن عبد الرحمن بالإبحار إلى المغرب فى العام التالى ، فعاثت سفنه بالسواحل المغربية وخرب عدةً من مرافئها .

بعد هذه الاشتباكات البحرية ، أرسل المعز قائده جوهر فى سنة ٣٤٧/ ٩٥٨ فى حملة برية إلى المغرب الأقصى ، ورغماً عن النجاح الذى حققته هذه الحملة ، إلا إنها لم تنجح فى إزالة الأمويين من قواعدهم الساحلية ، ثم إن الزناتيين عاودوا مناوأة الفاطميين ، واستردوا ما سبق أن فقدوه من مواقع .

لم يغفل الناصر كذلك الخطر الذى كان يتهدد دولته ، من ناحية الممالك النصرانية فى إسبانيا .

فى أعقاب الفتح الإسلامى ، لاذت مجموعة صغيرة من القوط ، بالجبال

الوعرة فى أقصى الشمال ، وتركهم العرب على حالهم استصغاراً لشأنهم . على أن هذه المجموعة صارت نواةً لمملكة صغيرة هى أشتوريش (أو جليقية) ، ولم تلبث هذه المملكة ، أن اتسعت فى السنوات الأخيرة . المضطربة من عصر الولاة ، ومهدت الطريق لظهور ممالك أخرى وإمارات ، توجهت إليها ضوائف المسلمين خلال عصر الإمارة ، واستطاعت هذه الضوائف أن تضع حداً لتوسعها، على أن هذه الممالك اشتد ساعدها فى السنوات الأخيرة المضطربة من عصر الإمارة ، وتقدمت تقدمًا واسعًا على حساب المسلمين ، بل إن أحد ملوكها اتخذ ـ فيما يقال ـ لقب الإمبراطور .

كانت الأقطار النصرانية فى إسبانيا فى عصر الناصر ، هى اشتوريش جليقية، قشتالة ، نبرة Navarra ، قطالونية ، وكونتيات صغيرة لدى سفوح البرتات ، أهمها أرغونة Aragón .

ومع أن اشتوريش وجليقية كانتا مملكةً واحدة ، إلا أن أوضاع كل منهما كانت تختلف عن الأخرى ، وفى أواخر القرن التاسع الميلادى ، صارت مملكة أشتوريش ـ جليقية تدعى بمملكة ليون León ، وذلك بعد امتداد هذه المملكة شرقًا وجنوبًا وضمها أراض جديدة .

صاحب هذا الامتداد إنشاء عدد من القلاع فى القسم الشمالى من الميسيتا الإسبانية المعروف باسم برودليا Bardulia ، وقد مهد ذلك لظهور إمارة قشتالة ، وهى بلاد القلاع ، التى كثيراً ما يتردد ذكرها ـ مضافًا إليها آلبة Alavá ـ فى الحوليات الإسلامية . وكانت هذه الإمارة تنزع إلى الاستقلال ، وتحققت غايتها خلال القرن العاشر الميلادى ، وفيما بعد تزعمت قشتالة الممالك الإسبانية جميعها .

فى أوائل القرن التاسع بدأ ظهور إمارة نبرة فى بلاد البشكنس وحاضرتها

بنبلونة ، وكانت إمارة ضعيفة الشأن صغيرة المساحة ، وفى القرن التالى أضحت المنافس الأساسى لليون ، خصوصاً بعد اتحادها مع كونتية أرغونة .

إلى جانب ليون ونبرة كان هناك الثغر الإسبانى فى منطقة قطالونية ، وكان هذا الثغر امتداداً للإمبراطورية الفرنجية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، ولكنه لدى تفكك هذه الإمبراطورية بعد وفاة مؤسسها تقاسمته تسع كونتيات أهمها برشلونة .

فى أول صدام بين المسلمين والنصارى استشهد القائد أحمد بن محمد ابن أبى عبده ، ومعه عدد كبير من المسلمين ، عند التقائه بقوات أُردُن الثانى Ordoño II ملك ليون (٩١٠ـ ٩٢٥م) قرب بلدة غرماج San Estebán de Gormaz فى ربيع الأول ٣٠٥هـ/ ديسمبر ٩١٧م ، وعلقت رأسه على أسوار المدينة .

كان ابن أبى عبدة أكبر قواد الأندلس فى عصره ، وقام بالدور الأوفى فى مناهضة الثوار الخارجين على الدولة ، لذلك فإن عبد الرحمن سارع فى العام التالى ، وأرسل الحاجب بدر بن أحمد ليلتقى بأردن عند متونية Metonia ، ثم استعاد المسلمون حصن غرماج .

فى سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م قاد الناصر بنفسه حملةً كبيرةً إلى مملكتى ليون ونبرة ، وهزم الملكين مجتمعين فى خونكيرا Junquera ، ووقع فى يديه عدد كبير من الأسرى ، بينهم بعض الأساقفة ، ثم عاد فى سنة ٣١٢/ ٩٢٤ ، واقتحم بنبلونة عاصمة مملكة نبرة ، واضطر ملكها إلى مهادنته .

على أن رُذْمير الثانى Ramiro II ملك ليون ، (٩٣٠ـ ٩٥١م) عاود ما درج عليه سلفه أردن من عدوان ، فاستولى على حصن مجريط Madrid وهدد طليطلة ، فتجرد إليه الناصر فى جيش كبير ، التقى بجيشه وجيش نبرة

عند أسوار مدينة شنت منكش Simancas ، لكن المسلمين أصيبوا بهزيمة كبيرة فى هذه المعركة ، لأن الناصر قود نجدة الصقلبى ، مما أغضب الأجناد العرب ، وقعد بعضهم عن القتال ، وتراجع المسلمون عن أسوار المدينة ، ليتساقط عدد كبير منهم فى خندق ، كان النصارى قد حفروه ؛ ومن هنا فالمعركة تعرف أيضاً بمعركة الخندق Alhandega .

كان وقع الهزيمة شديداً على المسلمين ، وكاد الناصر يفقد حياته بسببها ، واستعاد ملك ليون بعض الحصون التى كان المسلمون قد استولوا عليها قبل ذلك . لكن الهزيمة رغماً عن فداحتها لم تؤثر كثيراً فى المسلمين ، فعاودوا غزواتهم ، وجعل الناصر غالباً قائداً للثغر ، وجعل قاعدته مدينة سالم ، واستعاد غالب ما كان النصارى قد استولوا عليه ، وقام بعدة حملات وصل ببعضها إلى لُك فى قاصية جليقية ، بل إن القائد أحمد بن يعلى جاوز ذلك إلى ساحل المحيط ، واضطر رذمير إلى مصالحة المسلمين ، وتابعه خليفته أردن الثالث Ordoño III (٩٥١ـ ٩٥٦).

استطاع الناصر أن يؤمن جبهته الشمالية ، وسارعت القوى الكبيرة هناك إلى مصالحته ، وصار هؤلاء يلجئون إليه ، كى يفض النزاعات التى كانت تنشأ عندهم ، من ذلك أن شانجه Sancho ولد رذمير الثانى (٩٥٦ ـ ٩٦٦م) طلب من الناصر أن يمده بجيش ، يعينه ضد أخيه أردن ، وطلب أيضاً أن يرسل إليه طبيباً ، ليعالجه من سمنته المفرطة ، فبعث الناصر بطبيبه اليهودى حسداى ابن شبروط الذى شفا شانجه من السمنة ، واتفق معه على أن يسلم الناصر عشرة من حصونه الهامة ، فى مقابل المساعدة العسكرية ، على أن يتم توقيع الاتفاق فى قرطبة ، وبالفعل أتى شانجه ومعه جدته طوطة Teoda فى سنة ٣٤٧/ ٩٥٨ ، واستقبلهما الناصر فى قصره بالزهراء ، وسير بعد ذلك جيشاً إلى ليون أعاد شانجه إلى عرشه .

استطاع الناصر كذلك أن يفرض القانون والنظام فى دولته ، وتوخى الحزم فى تعامله مع وزرائه وقواده وولاته ، وكان يأخذ على معاصره أوتو Otto ملك ألمانيا (٩٣٦ ـ ٩٧٣م) تهاونه مع هؤلاء ، وقد أبدى هذه الملاحظات لسفير هذا الملك حين قدم إليه فى قرطبة .

إهتم الناصر كذلك بالحركة العمرانية ، فابتنى بسفح جبل العروس شمالى غربى قرطبة مدينة ملكية دعاها الزهراء ، نسبةً إلى إحدى نسائه ماتت عن مال كثير ، وأوصت سيدها أن ينفقه فى افتكاك أسرى المسلمين ، فلم يجد الناصر أسرى يفتديهم بهذا المال . وقد بدأ إنشاء هذه المدينة فى سنة ٣٢٥/ ٩٣٦ ، وعهد بالإشراف عليها لولده الحكم ، وقد بنيت على درجات ، بكل درجة قسم من أقسامها ، وأعلى الدرجات قصر الخليفة الذى اجتلبت مواد بنائه من نواح شتى بالأندلس وخارجها ، وما تزال بقايا هذه المدينة قائمةً ، ويدعوها الإسبان Medina Zahra

فى الوقت نفسه لم يغفل الناصر أمر المسجد الجامع بقرطبة ، فأجرى الزيادة الثالثة له فى سنة ٣٤٠/ ٩٥١ ، بحيث تضاعفت مساحته ، ووصل إلى ضفة النهر ، ويعد المحراب الذى أقامه آيةً من آيات الفن الأندلسى الجميل ، كما ارتفعت مئذنته ثمانين متراً .

كذلك امتد العمران إلى مرافق أخرى ، فأنشأ الناصر داراً جديدة للسكة بقرطبة ، وتم تجديد قنطرتها ، وكذا قنطرتى سرقسطة وماردة .

فى أواخر عهد الناصر بدأت تفد إليه سفارات من أنحاء أوربا ، منها سفارة من هيو Hugh أول ملوك فرنسا من أسرة كابيه Capet ، ويدعوه المسلمون هوقو، وسفارات من بعض أمراء فرنسا وإيطاليا ومن بابا روما .

على أن أهم هذه السفارات سفارة أوتو ملك ألمانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

كان بعض المجاهدين المسلمين ، قد تطرقوا بغزواتهم البحرية إلى إقليم بروفانس فى جنوبى فرنسا ، حيث استقروا منذ سنة ٨٩٠، وابتنوا مجموعة من الحصون أهمها فرخشنيط Fraxinetum، واتخذوها قاعدة لهجمات على جبال الألب وممراتها ، وسببوا ازعاجاً شديداً للأهلين والسلطات الحاكمة جميعاً .

لما كان هؤلاء المجاهدون يعودون فى أصلهم إلى الأندلس ، فإن أوتو وجد من واجبه أن يخاطب الناصر باعتباره مسئولاً عنهم ، وأرسل إليه بسفارة فى سنة ٣٤٢/ ٩٥٣ ، لكن هذه السفارة التى استقبلها الخليفة فى البهو الكبير ، بمدينة الزهراء ، لم تسفر عن نتائج مرضية ، ولم يعدبدمن معاودة نضال هؤلاء المسلمين إلى أن انتهى أمرهم فى سنة ٩٧٥م.

مات الناصر فى ٢ من رمضان ٣٥٠/ ١٥ من أكتوبر ٩٦١، وولى مكانه ولده الحكم ، الذى تلقب بالمستنصر .

عاش المستنصر فترةً طويلةً فى حياة أبيه وليًا لعهده ، ومع أنه شاركه فى إدارة شئون دولته فى السنوات الأخيرة من حياته ، إلا إنه شغف بالعلم وأهله .

يقول المؤرخ الكبير ابن حيان : « ولم يسمع فى الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وايثارها والتهمم بها ، أفاء على العلم ونوه بأهله ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه » .

أنشأ الحكم بقرطبة مكتبةً كبيرةً ، حوت كتبًا كثيرة في فنون شتى ، وتردد إليها الناس من الأندلس ومن خارج الأندلس ، وأقيم إلى جوار المكتبة معمل لتجليد الكتب ، كما أقيمت معامل لصناعة الورق ، خصوصًا بمدينة شاطبة Xátiva وبلغ الورق الشاطبى شهرةً كبيرةً فى العالم بأسره .

وكان الحكم يرسل رجالاً من قبله إلى مختلف الأنحاء بالمشرق والمغرب ، يحملون الكتب إليه ، وعندما علم بأن أبا الفرج الأصفهانى (ت ٣٥٦هـ) ـ وهو من بنى أمية ـ بسبيل الانتهاء من تأليف كتابه الشهير الأغانى بعث إليه بألف دينار ، مقابل أن يختصه بالنسخة الأولى من هذا الكتاب .

وشجع الحكم حركة الترجمة ، فترجم العديد من الكتب اليونانية واللاتينية ، ومنها كتاب الحشائش لديسقوريدس Diosocorides وكتاب التواريخ لهوروشيوش Paulus Orosius ، كما شجع الحكم العلماء على أن يأتوا إليه ، ومن جملتهم أبو على القالى (ت ٣٥٦/ ٩٦٧) صاحب كتاب الأمالى ، وكان قد وفد من العراق فى عهد الناصر ، ونال حظوةً كبيرةً فى عهد المستنصر ، ويستمد كتاب الأمالى اسمه من محاضرات أملاها على تلامذته الأندلسيين فى جامع قرطبة ، وهو موسوعة فى الأدب أشبه بموسوعات الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) .

ومن العلماء المشهورين فى عهد المستنصر ابن القوطية اللغوى والمؤرخ (ت ٣٦٧/ ٩٧٧) . والخشنى المؤرخ (ت ٣٦١/ ٩٧١) والزبيدى اللغوى (ت ٣٧٩/ ٩٨٩) وربيع بن زيد الأسقف النصرانى الذى عرف أيضًا باسمه الإسبانى Recemundo .

كان الحكم ـ إلى ذلك ـ عالمًا ، وله مشاركة فى علم الأنساب ، وله مشاركة أيضًا فى علم الحديث وأجيزت رواياته ، وكان دقيقاً فى قراءاته ، فكان يعلق على بعض الكتب التى يطالعها ، ويدون تعليقاته بحواشيها ، ويعتبر العلماء تعليقات الحكم أصولاً معتمدة .

نهج المستنصر نهج أبيه فى الاهتمام بالحركة العمرانية ، فقام بزيادة جديدة لجامع قرطبة ، وأجرى الماء العذب إليه من عين بجبل قرطبة ، واستكمل بناء

مدينة الزهراء التى استمرت فى عهده مدينةً ملكية .

لم يغفل المستنصر مع ذلك متابعة سيرة أبيه فى مناوأة الفاطميين وموالاة زناتة ، على أن الأدارسة حاولوا استعادة ملكهم المفقود ، فقاموا بثورة تزعمها الحسن بن قنون ، وقطعوا الدعوة للأمويين ، واحتلوا طنجة وتطوان وأصيلا .

أرسل المستنصر فى سنة ٣٦١/ ٩٧٢ قائده محمد بن طملس إلى سبتة، ولحق به أسطول قادة عبد الرحمن بن رُماحس ، وهاجم الأندلسيون طنجة براً وبحراً ، فهرب ابن قنون من المدينة ، وتعقبه ابن طملس ، فأصيب بهزيمة شديدة قرب طنجة ، ولم يجد المستنصر إلا أن يستدعى قائده الكبير غالبًا من الثغر ، وأصحبه أسطول ابن رماحس ، وحوصر ابن قنون فى حصنه المعروف بحجر النسر ، واشتد حصاره إلى أن طلب الأمان فأجيب إليه ، ودخل غالب الحصن فى سنة ٣٦٣/ ٩٧٤ ، ثم عاد إلى الأندلس وفى صحبته الأمير الإدريسى وعدد من أقربائه .

ولى المستنصر على المغرب جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى ، وكان من أنصار الفاطميين ، ثم انقلب عليهم ، وتسبب فى قتل زيرى بن مناد الصنهاجى ، وأشرك المستنصر معه فى الحكم أخاه يحيى .

على أن المستنصر واجه متاعب من المجوس (القابكنج) الذين عادوا مرة أخرى إلى الساحة الأندلسية .

كان ملك فرنسا اقطع هؤلاء أحد أقاليمه الغربية توقياً لشرهم ، ودعى هذا الإقليم بنورماندیا ، نسبة إلى هؤلاء النورمنديين (الشماليين) وبعد فترة من مقامهم هناك ، عادوا ـ وقد صاروا نصارى ـ إلى ممارسة نشاطهم فى مياه الأندلس الغربية .

على أن المسلمين اتخذوا أهبتهم لاستقبال هؤلاء القراصنة ، وذلك عن طريق جواسيسهم الذين أرسلهم المستنصر إلى حدوده الشمالية ، كما أمر فى الوقت نفسه بصنع مراكب على هيئة مراكبهم . لذلك عندما أغار النورمان على قصر أبى دانس Alcácer do sal فى سنة ٣٥٥/ ٩٦٦ وقتلوا عدداً من المسلمين ، وأسروا عدداً آخر ، فإن الإسطول الأندلسى ، تمكن من اللحاق بهم عند مصب وادى شلب Silves وهزمهم واسترد من كان معهم من الأسرى ، وإذا كان النورمان قد عاودوا الإغارة فى سنتى ٣٦٠/ ٩٧١ ، ٣٦١/ ٩٧٢ ، فإنهم لم يستطيعوا النزول إلى السواحل الأندلسية ، بفضل يقظة الأسطول الأندلسى .

أما عن الممالك الإسبانية ، فإن شانجه ملك ليون الذى أعانه الناصر فى استرداد عرشه ، رفض لدى ولاية الحكم أن يبر بعهده للناصر ، ويسلم الحصون المتفق عليها ، وعقد حلفاً مع ملك نبرة وقومس قشتالة وقومس برشلونة .

رد الحكم فى سنة ٣٥٢/ ٩٦٣ بأن قاد بنفسه حملةً اقتحمت قشتالة واجتاحتها ، ثم انتقلت منها إلى نبرة ، فهرع شانجة إلى ملك نبرة غرسية Garcia (٩٢٦ ـ ٩٧٠) واتحد معه فى قتال المسلمين ، ولكن الحكم أصاب الخليفين بالهزيمة ، وبعث بقائده غالب وغيره من قواده إلى أن وصلوا إلى سفوح جبال البرتات ، واستمرت هذه الحرب سنتين ، عاد ملوك إسبانيا بعدها لطلب الصلح ، وأتت رسلهم إلى قرطبة ، واستقبلهم الخليفة فى مقره بالزهراء ، مثلما كان يفعل أبوه قبله .

ومن أجل أن يكرس المستنصر الأمن لدى حدوده الشمالية ، جعل للثغور جيشاً خاصاً بها مركزه فى مدينة سالم ، وبعض أقسامه فى المدن الأخرى الهامة كمجريط ووادى الحجارة Guadalajara وغرماج ، وحرص على امداده بالمؤن

والأسلحة ، فى حين جعل بالحضرة جيشاً آخر مركزه فى مدينة الزهراء ، يقوده الخليفة بنفسه أو ينيب عنه من يرى من رجاله .

ومثلما كانت الحال مع أبيه جاءت إلى المستنصر سفارات من ملوك أوربا وبينهم أوتو الثانى ملك ألمانيا (٩٧٣ ـ ٩٩٤) ويوحنا الشميشق Tzimiskes (٩٦٩ـ ٩٧٦م) ملك الروم .

فى سنة ٩٧٦/٣٦٥ شعر الحكم المستنصر باقتراب أجله ، فدعا كبار رجال دولته ، وأخذ بيعتهم لولده هشام ، وكان ما يزال صبياً ، ومات بعد شهور قليلة فى العام التالى .

2 ـ الدولة العامرية :

لدى وفاة المستنصر ، انقسم رجال دولته إلى قسمين ، فمال العسكريون بزعامة فائق وجؤذر من الصقالبة إلى تنحية هشام لصغر سنه ، وتولية عمه المغيرة، ومال الوزراء بزعامة الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر إلى تنفيذ وصية المستنصر . وتحققت الغلبة للفريق الأخير ، وقتل المغيرة على يدى ابن أبى عامر ، وولى هشام وتلقب بالمؤيد بالله .

خضع الخليفة الصغير لسيطرة أمه ، وكانت جارية بشكنسية ، حظيت عند الخليفة المستنصر وأسلمت ، فتزوجها وتحول اسمها من أورا Aurora إلى صُبح ، وأعانها فى وصايتها على ولدها محمد بن أبى عامر .

ينتمى محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر إلى أسرة عربية يمالية ، وفدت إلى البلاد إبان الفتح ، ودرس فى جامع قرطبة ، ثم انخرط فى سلك القضاء ، وبلغ خبره السيدة صبح ، وكانت فى حاجة إلى شاب كفء يدير أملاكها الخاصة ، فاستخدمته وسعت لدى زوجها ، فولاه دار السكة ، ولم

يلبث أن صعد فى مناصب الدولة ، فولى القضاء بكورة إلبيرة ، ثم انتقل إلى إشبيلية ، مشرفاً على أموال الزكاة والمواريث والشرطة بها ، ثم صار وكيلاً لهشام الصبى ، إلى جانب كونه وزيراً مسئولاً عن المواريث والشرطة بقرطبة .

ومثلما كانت صبح وراء صعود محمد بن أبى عامر فى عهد زوجها المستنصر ، فإنها كانت أيضاً وراء صعوده فى عهد ولدها المؤيد ، فأوعزت إليه بأن يصير معاوناً للمصحفى جعفر فى تدبير دولته .

سعى ابن أبى عامر إلى أن ينفرد بالسلطة ، فتخلص من الصقالبة المناوئين له ، وأخرجهم من القصر ، وأتى بصقالبة غيرهم ، عرفوا بالفتيان (أو المماليك) العامرية ، وبدأ بعقد صلات طيبة مع القائد غالب صاحب الثغر وتزوج ابنته ، فقوى أمره ، واستطاع أن يستصدر أمراً من الخليفة بعزل المصحفى ، وزج به فى السجن ، فظل فيه حتى مات .

بعد ذلك انقلب محمد بن أبى عامر على صهره غالب ، واستعان عليه بأجناد مغاربة ، استقدمهم إلى العاصمة ، ودعى هؤلاء بجند الحضرة ، وكان يقودهم جعفر بن حمدون وأغدق عليهم ، وفسدت العلاقات بين ابن أبى عامر وغالب ، واضطر القائد الكبير ـ وقد صار شيخاً كبيراً ـ لأن يتصل بملوك إسبانيا النصرانية ، وفى سنة ٣٧١/ ٩٨١ وقعت المعركة الفاصلة بين الرجلين ، وكاد يتحقق النصر لغالب ، فى معركة انتهت إلى هزيمته وقتله ، ثم انقلب ابن أبى عامر بعد ذلك على حليفه ابن حمدون واحتال عليه وقتله .

انفرد محمد بن أبى عامر بالسلطة ، وصار حاجباً للخليفة ، واتخذ لقب المنصور ، ودعى له على المنابر ، ونقش اسمه على السكة ، وفى سنة ٣٨٦ ٩٩٦ أضاف المنصور إلى ألقابه لقب الملك الكريم ، وبذا ظهرت فى رحم عصر الخلافة دولة جديدة دعيت بالدولة العامرية .

كان المنصور يدرك أن أهل الأندلس ينظرون إليه على إنه مغتصب للسلطة من أصحابها الشرعيين بنى أمية ، كما كان يدرك أيضًا إنه لم يصل إلى هذه السلطة بوسائل كريمة ، ومن ثم فيمكن أن يظهر بالساحة مغامر يقوم بما قام به ، لذلك كان حريصًا على أن يؤمن نفسه إزاء هؤلاء ، فابتنى فى سنة ٣٦٨/ ٩٧٨ مقابل الزهراء مدينةً جديدة دعاها الزاهرةً ، صارت قاعدةً له ، يدير منها شئون دولته ، بينما الخليفة محجور عليه فى الزهراء .

انصرف المنصور بعد ذلك إلى العطش بالأقوياء من أبناء البيت الأموى أو إبعادهم ، ثم أجرى انقلابًا فى نظام الأجناد ، فبعد أن كان هذا النظام يقوم على أساس القبيلة العربية ، جعل الجند الواحد يضم أفرادًا ينتمون إلى عدة قبائل ، وبعد أن كانوا يعتمدون فى معاشهم على اقطاعاتهم ، جعلهم يعتمدون فى معاشهم هذا على رواتب يؤديها لهم مشاهرةً .

إلى جانب ذلك فقد بدأ المنصور فى استقدام البربر من العدوة المغربية ، وأضحى كلفًا بهم وأجزل أعطياتهم ، كما استقدم الصقالبة ، وكانوا أكثر ولاءً ، لأنهم لم تكن لهم عصبية ، ولم يعرفوا ولاءً إلا لسيدهم .

عكف المنصور على استمرار حال الاستقرار التى سادت فى عصر الناصر والمستنصر ، وقد حقق نجاحات كبيرة فى هذه الصدد ، وأثبت إنه رجل دولة قدير ، فكان دائم التفكير فى رعيته ، حريصًا على استتباب الأمن ، مما أدى إلى تدنى الجرائم والاضطرابات ، وفى سبيل ذلك كان كثير السهر قليل النوم ، ويذكر أنه قال : « حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى ، لما كان فى دور هذا البلد عين نائمة » .

واهتم المنصور اهتمامًا واسعًا بالقضاء ، وأظهر صرامة فى تطبيق أحكامه ، ولو كانت ضد بعض ولده ورجال دولته .

وسار المنصور على نهج أسلافه من بنى أمية ، فقام بعدة إنشاءات ، بينها مدينة الزاهرة ، كما عنى بالطرق التى تربط قرطبة بسائر أنحاء الدولة ، وأنشأ قناطر سهلت الوعر منها ، وقد يسرت هذه الطرق عبور حملاته العسكرية داخل الأندلس وخارجها .

لم يغفل المنصور أمر المغرب ، وكان يوسف بن زيرى قد اجتاحه فى سنة ٣٦٨/ ٩٧٨ ، ولم يتبق داخلاً فى ملك بنى أمية سوى سبتة ، فاستطاع المنصور أن يدخل فى طاعته البلاد من سجلماسة جنوبًا إلى تلمسان وتاهرت شمالاً وشرقًا ، واستعان فى ذلك بأجناده من ناحية والموالين له من قبيلة زناتة من ناحية أخرى ، واصطنع بعض أبناء البيت الزيرى الحاكم فى إفريقية ، فوفد إليه زاوى بن زيرى وأولاده فى سنة ٣٩١/ ١٠٠١ ورحب المنصور بهم .

على أن المنصور واجه حركةً من قبل الأمير الإدريسى الحسن بن قنون الذى غادر الأندلس ولحق بالفاطميين فى مصر ، حيث حفزوه إلى أن يعود إلى المغرب ويستعيد ملك آبائه . وقد استطاع ابن قنون أن يستميل فى سنة ٣٧٣/ ٩٨٣ بنى يفرن وغيرهم من قبائل زناتة ، فواجهته جيوش المنصور وقبيلة مغراوة الزناتية ، واضطر لأن يعلن استسلامه فى سنة ٣٧٥/ ٩٨٥ ، وطلب الأمان من المنصور ، لكنه أبى أن يعطيه إياه وأمر بقتله .

كان لتأييد زيرى عطية المغراوى للمنصور ضد ابن قنون أثره فى أن ولاه المغرب ، لكنه زينت له نفسه الانفراد بالأمر هناك ، فطرد فى سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ عمال المنصور وداخل السيدة صبح ، وكانت قد فترت علاقتها بالمنصور، بعد أن استبد بالسلطة دون ولدها ، فأعانته ببعض أموالها .

أرسل المنصور مملوكه واضحًا قائد الثغر إلى طنجة ، وانضم إليه عدد من قادة البربر الموالين ، ودارت معارك غير حاسمة بين الفريقين ، فأسند المنصور

القيادة لولده عبد الملك ، وأيده بحشد من جنود الأندلس ، ودارت معارك قرب طنجة ، أفضت إلى هزيمة زيرى وإصابته بجراحات وهربه إلى الصحراء ، حيث مات بعد قليل . واستولى عبد الملك على فاس وتادلا وسجلماسة وغيرها من المدن ، ثم ولى واضحاً حكم المغرب فى سنة ٣٨٩/ ٩٩٩ .

على أن أكبر انجازات المنصور هو حربه ضد ممالك الشمال النصرانية ، وقد اتخذت هذه الحرب هيئة صوائف وشوات ، توجهت إلى هذه الممالك ، وقادها المنصور بنفسه ، وزاد عددها على الخمسين ، ولم يهزم فى إحداها . وكان من عادته أن يجمع ما علق بوجهه من غبار هذه المعارك ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل ، حتى اجتمعت لديه صرة ضخمة ، عهد بتصييرها فى حنوطه عند موته ، وفى الوقت نفسه كان يحمل معه كفنه من غزل بناته .

لا نستطيع هنا أن نعرض لكل هذه الغزوات ، ومنها الغزوة التى شنها ضد برشلونة وقطالونية فى الشمال الشرقى فى سنة ٣٧٤/ ٩٨٥ ، والغزوة التى شنها ضد جليقية فى الشمالى الغربى فى سنة ٣٨٧/ ٩٩٧ .

كانت إمارة برشلونة فى منعة من المسلمين ، وقد سار المنصور إليها عن طريق مرسية ، متخذاً طريق الساحل ، وهزم قوات أميرها القومس بوزيل Borrell II (٩٤٠ـ ٩٩٢م) ، ثم اقتحم المدينة ودمرها وقتل معظم أهلها ، ولم يتعرض أميرها له ، واقتاد نائبه إلى قرطبة حيث ظل فى الأسر أعواماً طويلة.

وأهم غزوات المنصور هى غزوته الثامنة والأربعون إلى مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela ، وتلى هذه المدينة فى نفوس الإسبان مدينة القدس ، ويلى ياقب (يعقوب) فى نفوسهم المسيح عليه السلام ، وكان هدف المنصور أن يضرب الإسبان فى صميم زعامتهم القومية والدينية .

كانت الحملة برية بحرية ، فقد سار المنصور بجيشه ، حتى بلغ نهر دويره ،

وفى الوقت نفسه أقلع أسطوله من قصر أبى دانس إلى مصب دويره ودخل النهر إلى أن التقى بالجيش البرى ، واخترق المسلمون بلاد العدو ، حتى بلغوا مدينة شنت ياقب ، فوجدوا أهلها قد هجروها ، فأمر المنصور بتدميرها وكنيستها الجامعة ، لكنه حافظ على مقام القديس يعقوب ، ووكل به من يحفظه ، ثم غادر المدينة ، وسار حتى ساحل المحيط ، واتخذ طريق العودة ، وقدحمل معه الأسرى والغنائم ، ومن بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها ، وقد استخدمت الأبواب فى تسقيف الجزء الذى زاده فى جامع قرطبة ، واستخدمت النواقيس ثريات له .

حققت هذه الغزوات شعبيةً كبيرةً للمنصور فى أنحاء الأندلس وغير الأندلس ، وأسهمت فى الرخاء العام الذى ساد البلاد ، بسبب ما أتى به من غنائم وافرة وسبى ، حتى إن الناس فى أيامه تغالوا فى تجهيز بناتهم بالثياب والحلى لرخص بنات الروم .

أسفرت هذه الغزوات عن امتداد حدود الأندلس الإسلامية شمالاً على حساب النصارى ، بحيث صارت هذه الحدود قريبةً مما كانت عليه فى عصر الولاة .

أحرز المنصور مكانةً عاليةً بين حكام عصره ، وأتته سفارات من ملوك أوربا ومنهم باسيل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥م) إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية (دولة الروم) وأوتو الثالث (٩٩٤ ـ١٠٠٢م) إمبراطور الدولة الرومانية الغربية (ألمانيا) .

أما حكام شبه الجزيرة ، فإنهم صاروا أفصالاً تابعين لحضرة قرطبة ، وسعوا جميعهم إلى مرضاة سيدهم المنصور، فأصهر شانجة غرسية Sancho Garcés II ! ملك نبرة (٩٧٠ ـ ٩٩٤م) إليه وزوجه ابنته التى أسلمت وتسمت عبدة ، وأنجبت للمنصور ولده عبد الرحمن ، الذى اشتهر فيما بعد بشنجول San-chuelo ، أما قومس قشتالة غرسية (٩٧٠ ـ ٩٩٥م) فإن حياته انتهت فى

الأسر بقرطبة ، كما إن المنصور تزوج إحدى بناته .

مات المنصور فى عوده من الغزو فى سنة ١٠٠٢/٣٩٢ ، ودفن بصحن قصره فى مدينة سالم ، ونقش على قبره هذا البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيون تراه

تالله لا يأتى الزمان بمثله ... أبداً ولا يحمى الثغور سواه

أما المصادر النصرانية ، فقد وردت بها هذه العبارة « فى سنة ١٠٠٢ م مات المنصور وألحد فى جهنم » .

لدى وفاة المنصور خلفه فى الحجابة ولده عبد الملك الذى اتخذ لنفسه لقب المظفر ، ولما كان أبوه قد خلف له دولةً مستقرةً ، فإنه أقبل على ملذاته ، لكنه لم يغفل واجباته فأظهر العدل ، وأظهر الميل إلى العلماء ، وعندما تحرك بعض أبناء البيت الأموى ضده لم يتردد فى نفيهم إلى المغرب .

أما فى سياسته الخارجية ، فإن زعماء زناتة ، وعلى رأسهم المعز بن زيرى ابن عطية المغراوى دانواله بالطاعة ، فولاه المغرب ، بدلاً من قائده واضح ، على أن يؤدى مقادير معينة من الأموال والخيل ، وتابع سياسة أبيه فى الترحيب بالبربر ، خصوصاً زاوى بن زيرى الصنهاجى وولده ، وجعل مقامهم فى نواحى غرناطة .

واصل المظفر سياسة أبيه الجهادية ، فقام بعدة غزوات إلى الممالك النصرانية ، وصل بعضها إلى سفوح جبال البرتات ، وحمل حكام هذه الممالك على أن يجددوا الولاء له ، ويحكمونه عندما تنشأ بينهم نزاعات .

أتت المظفر كذلك سفارات من ملوك عصره ، منهم باسيل ملك الروم الذى أصحب هديته إليه عدداً من الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى يديه بالمشرق .

على أن المظفر مات وهو بعد شاباً فى عوده من غزوته السابعة والأخيرة فى سنة ١٠٠٨/٣٩٩ ، ولم يكن قد أكمل سبعة أعوام من حكمه القصير ، وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول الذى تلقب بالناصر .

تذهب بعض الروايات إلى أن عبد الرحمن هذا كانت له يد فى موت أخيه عبد الملك ، ولم تكن حاله حال أبيه ولا حال أخيه ، إذ كان شاباً طائشاً مغروراً ، هيأ له غروره أن يرغم الخليفة المحجور عليه ، بأن يجعله ولى عهده ، ووضعت أحاديث نبوية تبرر نقل الخلافة من قريش إلى قحطان ، وتبالغ بعض الروايات ، فتذكر إنه سعى إلى قتله ليحل محله .

كان سلوك عبد الرحمن هذا دافعاً لأن تحاك ضده مؤامرات ، من قبل الحزب الأموى ، الذى كان يتحين الفرصة ، حتى يتخلص من الدولة العامرية ، وشاركت الذلفاء أم عبد الملك المظفر فى هذه المؤامرات ، لما بلغها عن دور لعبد الرحمن فى موت ولدها ، فاتصلت بنفر من شباب بنى أمية ، على رأسهم محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر .

إنتظر هؤلاء حتى حانت الفرصة المناسبة ، وهى خروج عبد الرحمن شنجول إلى الغزو ، وما كاد جيشه يغادر الحضرة ، حتى هاجم ابن عبد الجبار القصر ، وقتل نائبه عبد الله بن أبى عامر ، وأرغم هشاماً المؤيد على التنازل عن الخلافة ، وبويع - من ثم - باسم المهدى ، ولم يلبث أن هدم قصور الزاهرة وأحرقها .

لم يوفق عبد الرحمن شنجول فى غزوته ، فقد كان الوقت شتاءً ، وامتنع ملك ليون برءوس الجبال ، فلما وجد عبد الرحمن أن لا سبيل إلى لقائه ، اتخذ طريق عودته إلى عاصمته ، ولدى حلوله بطليطلة ، وصلته أنباء الانقلاب ضده ، ونصحه مولاه واضح صاحب الثغر بأن يبقى فى مكانه ، لكنه أصر على

العودة لإخماد الفتنة وعندما اقترب من قرطبة ، تخلى عنه زعماء البربر ، خوفًا على أولادهم وذويهم المقيمين بالمدينة ، وأضحى عبد الرحمن في قلة من أصحابه ، وسرعان ما ظفر به أعداؤه عند دير بضواحي العاصمة ، وقتل في ٣ من رجب ٣/٣٩٩ من مارس ١٠٠٩ ، ولم يكن قد بقي في منصبه ثلاثة شهور ، وبموته انتهت الدولة العامرية .

3 - سقوط الخلافة الأموية :

كانت خلافة المهدى تعنى أن السلطة في البلاد صارت سلطةً واحدةً ، ولم يعد الحاجب كما كانت الحال قبلاً هو صاحب السلطة الفعلية ، لكن هذا الشكل الظاهر للوحدة ، أخفى وراءه دولة ، بدأت مرحلة انهيارها ، واستغرقت هذه المرحلة نيفًا وعشرين سنة .

كان نجاح المغامرة التى أقدم عليها المهدى حافزاً ، لأن يسعى غيره من أبناء البيت الأموى إلى مثلها ، بل إن الدور الذى سبق أن قام به العامريون فيما مضى ، سعى غيرهم من الصقالبة والبربر لأن يقوموا به .

بدأ المهدى عهده بأن أساء إلى البربر ، وعامل زعيمهم زاوى بن زيرى معاملةً سيئةً ، وانتقلت عدوى هذه المعاملة إلى العامة ، فهاجموا عدداً من دور البربر ونهبوها ، كما أساء المهدى إلى الصقالبة العامريين ، وأرغمهم على مغادرة قرطبة إلى شرقى الأندلس ، ولم يقف معه سوى واضح صاحب الثغر الذى بعث إليه كتاباً بالطاعة .

عندما تجمعت عناصر السخط ضد المهدى ، استثمرها سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، فتزعم البربر ، وخرج معهم من قرطبة ، ومضى بهم إلى الثغور ، حيث اتصل بقومس قشتالة ، واتفق معه على أن يعينه

بالزاد والعتاد والرجال ، مقابل أن يتنازل له فى حال ظفره عن بعض مدن الثغور .

بويع سليمان بن الحكم باسم المستعين ، وزحف البربر إلى قرطبة وبالقرب منها عند قنتيش ، دارت معركة أسفرت عن انتصارهم ودخولهم المدينة فى سنة ١٠٠٩/٤٠٠ ، حيث عاثوا فيها فساداً ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وأضحى زاوى بن زيرى أثيراً عند المستعين .

هرب المهدى إلى طليطلة ، وانضم إليه واضح ، واتصلا بقومس برشلونة ، وعقدا معه إتفاقًا يشابه إتفاقًا أعدائهم مع قومس قشتالة ، وتنازلا له عن مدينة سالم ، وهى ثغر إسلامى عزيز ، وفى موقع يبعد عشرين ميلاً شمال قرطبة يدعى بعقبة البقر هزم البربر ، وغادروا قرطبة وقد اعتزموا العودة إلى بلاد المغرب ، وقبل أن يصلوا إلى الجزيرة الخضراء ، جرت معركة بينهم وبين المهدى عند وادى آره Guadiaro ، وحاقت الهزيمة هذه المرة بالمهدى ، وفارقه حلفاؤه النصارى ، عندما أدركوا خسارته لقضيته ، واضطر للعودة إلى قرطبة وحفر خندقًا حواليها ، انتظاراً لحصار من جهة البربر .

ظلت الحرب سجالاً بين المهدى والمستعين ، وحاول واضح أن يحل المشكلة بأن يقتل المهدى ، ويبعث برأسه إلى المستعين ، وأعاد الخلافة إلى هشام المؤيد ، وطلب هذا بدوره معونة قشتالة ، حتى يأمن شرها ولا تنضم إلى أعدائه ، وتنازل لقومسها عن مائتى حصن على الحدود .

استمر البربر في حصارهم للمدينة ، وحاول أهلها محاولةً ثانيةً استمالتهم ، فقتل بعضهم واضحًا ، وبعثوا برأسه إليهم ، لكن ذلك لم يزد البربر إلا اصراراً على دخول المدينة .

فى ٢٦ من شوال ٩/١٤٠٣ من مايو ١٠١٣ اقتحم البربر قرطبة ، ونشروا

الدمار بها ، وقتلوا فى أهلها ، وقد عاصر ابن حزم هذه المرحلة ووصف واقعة الاقتحام وصفاً مؤثراً ورد فى كتابه « طوق الحمامة » .

لم يكتف المستعين بما جرى ، فقتل هشامًا المؤيد ، بعد دخوله المدينة بشهور ، وبذا انتهت حياة هذا الخليفة التاعس الذى لم يمارس يومًا واحداً مهام منصبه .

ترتب على دخول البربر قرطبة ، وسيطرتهم على الخليفة المستعين أن اختصهم بالمناصب الكبيرة كالحجابة والوزارة ، وقسم بينهم كور الأندلس ، خصوصًا الواقعة منها بالجنوب ، فبدأت تنشأ بها دول طوائف شبيهة بدول طوائف أنشأها الصقالبة بشرقى البلاد .

كان بنو حمود – وهم من الأدارسة – يعدون فى جملة البربر ، واختصهم المستعين بسبته وطنجة وأصيلة والجزيرة الخضراء ، لكنهم لم يقتنعوا بذلك ، بل طمحوا فى منصب الخلافة ذاته ، خصوصاً وانهم علويون هاشميون ، واستطاع على بن حمود فى سنة ٤٠٧ / ١٠١٦ أن يدخل قرطبة ، وقتل المستعين ، وولى بالخلافة باسم الناصر .

توالى على الحكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بنى حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلى ، وثلاثة من بنى أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمستكفى ، وتداخلت ولايات هؤلاء الخلفاء ، ولم تستقر الأوضاع بعاصمة الدولة ، واستمرت النزاعات التى شارك فيها البربر والصقالبة وأهل قرطبة أنفسهم ، بل إن الحموديين تنازعوا بعضهم ضد بعض .

انتهت هذه المرحلة فى سنة ١٠٢٦/٤١٧ حين انتهز أهل قرطبة فرصة مغادرة المعتلى بن حمود المدينة إلى مالقة ، وفتكوا بالحامية البربرية بها ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم

جَهْوَر بن محمد بن جهور ، وبايعوا هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر خليفةً ، وتلقب بالمعتد بالله .

كان المعتد مقيما خارج قرطبة ، حين تمت بيعته ، لكنه تلكأ فى دخول عاصمته ، وظل مقيمًا بحصن البونت Alpuente بعيداً عنها قرابة ثلاث سنوات ، ثم دخل المدينة فى سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ فلم يحسن سياسته بها ، كما لم يحسن اختيار وزرائه ، وتحركت كوامن الثورة فى نفوس أهل قرطبة القلب ، فعاودوا الاجتماع فى سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م ورأسهم أبو الحزم جهور ، واتفقوا على خلع المعتد ، وإبعاده وأهله إلى خارج قرطبة ، وإبطال رسوم الخلافة جملةً .

بعد قليل نشأت فى قرطبة حكومة أشبه بالجمهورية ، دعيت بحكومة الجماعة ، ولى رئاستها أبو الحزم جهور (١٠٣١/٤٢٢ ـ ١٠٤٣/٤٣٥) وكان شيخًا جليلاً ، ورث التقاليد العريقة التى كانت لأسرته – وهى من الموالى – فى عصور الأندلس الزاهرة ، وبدأ دولةً استمرت حتى دخلت فى ملك بنى عباد أصحاب إشبيلية .

على أن دولة بنى جهور هذه لم تنتظم كل بلاد الأندلس ، واقتصرت على قرطبة وما جاورها ، وأضحت دولة من دول الطوائف التى سادت الحياة السياسية فى بلاد الأندلس ، حتى مقدم المرابطين .

الفصل الثانى عشر
الأندلس فى عصر الطوائف

١ - قيام دول الطوائف :

دول الطوائف تعبير عن تعدد الولاءات السياسية فى شبه الجزيرة ، مقابل ولاء سياسى واحد فى المرحلة السابقة ، هو الولاء للأسرة الأموية .

مجموع هذه الدول نحو من عشرين دولة ، تفرقت إليها البلاد فى مطالع القرن الخامس / الحادى عشر ، وانتهت الحال بهذه الدول (أو الممالك) إلى سقوطها فى أخريات هذا القرن ، الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المرابطين حكام المغرب ، أو فى أيدى الإسبان ، ونستثنى هناك مملكة سرقسطة التى امتد بها العمر إلى أوائل القرن التالى .

يبدأ عصر الطوائف بنهاية الدولة العامرية فى سنة ١٠٠٩/٣٩٩ ... ونتساءل لماذا وخلال سنوات قليلة انتثر عقد الدولة الأندلسية ؟؟

فى تقديرنا إن ظاهرة الطوائف هذه كانت تعبيراً عن الخصوصية الأندلسية فى أوجها ، والمنطلق لهذه الخصوصية هو البيئة ، فنحن نلاحظ فى شبه الجزيرة تبايناً فى سطح الأرض وتقطعاً حاداً له ، وتعدداً للأقاليم المناخية والغطاء النباتى ، وأنماط الحياة الاقتصادية ، وصار السكان يعيشون فى مجتمعات صغيرة منعزلة بعضها عن بعض ، تختلف فيما بينها فى درجات الحضارة وطرائق التفكير . وهو ما دفع الرومان (وبعدهم القوط ثم العرب) إلى أن يجعلوا الأقاليم الجغرافية أقاليم إدارية .

ترتبت على ذلك نزعة محلية ، أعان عليها ما كانت تواجهه هذه المجتمعات الأندلسية الصغيرة من مشكلات حياتية ، وأعان عليها أيضاً صعوبة

خطيئة أخرى ارتكبها المنصور ، هى إن المساحات الواسعة التى استردها من النصارى أو استولى عليها ، وإن صارت جزءاً من دار الإسلام ، إلا إنها فى واقع الحال كانت مناطق عازلة أو مناطق منزوعة السلاح ، لم يهتم بتعميرها وتوطينها المسلمين . وإذا كان ولده المظفر إبان غزاته لبرشلونة فى سنة ١٠٠٣/٣٩٣ قد شرع فى إصلاح بعض حصونها ، وأغرى المسلمين بسكناها، مقابل أن يثبتهم فى الديوان ، ويعطى الواحد منهم المنزل والمحرث ، إلا أن ما فعله المظفر كان استثناءاً لسياسة عامة قررها أبوه .

فى المقابل درج النصارى لدى استيلائهم على أراض إسلامية ، على تعميرها ، وتوطين بعض العامة والنصارى المهاجرين من الأندلس بها ، ومنحوهم امتيازات صدرت بشأنها براءات استقرار Cartae Populationis تملك هؤلاء بموجبها أراضيهم ، وشرعوا ينشئون عدداً من القلاع ، احتشد بها فرسانهم ، ومن هذا أتى مسمى قشتالة وهى بلاد القلاع ، كما شرعوا ينشئون أديرة احتشدت برهبان متعصبين ، أسهموا على نحو وافر فى إشعال الروح الصليبية .

2 - الطوائف ودورها فى ضياع الأندلس :

أسفر قيام الطوائف عن تكريس للطائفية السياسية ، فقد توزعت الأندلس ثلاث مجموعات من الممالك عربية وصقلبية وبربرية ، ودفع ملوكها إلى اتخاذ ألقاب لم يتخذها قبلهم غير الخلفاء ، ولدينا مثال واضح فى بيتين مشهورين لشاعر مغربى معاصر هو ابن رشيق القيروانى (ت١٠٧١/٤٦٣) .

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... ألقاب معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

سعى الملوك لأن يكون للواحد منهم بطانة من الشعراء ، يتغنون بفضائله وفضائل مملكته . ولدينا نموذج الشاعر ابن عمار (ت١٠٨٥/٤٧٧) مع الشاعر الملك المعتمد بن عباد (١٠٦٩/٤٦١ ـ ١٠٩١/٤٨٤) باشبيلية . وغنى عن البيان أنه إلى عصر الطوائف ينتمى القسم الأكبر من تراث الشعر الأندلسى .

إلى جانب ذلك عنى الملوك بـ العمائر والإنشاءات التى تخلد ذكرهم ، مثل قصر الجعفرية فى سرقسطة ، وقد ابتناه المقتدر بن هود (١٠٤٦/٤٣٨ ـ ١٠٨١/٤٧٤) وضم هذا القصر بهواً ذهبًا دعى بمجلس الذهب ، وفيه يقول :

قصرَ السرور ومجلسَ الذهبِ ... بكما بلغت نهاية الأربِ

لو لم يحز ملكى خلافكما ... كانت لدى كفاية الطلب

على أن هذه العمائر والإنشاءات كان ينصرف معظمها إلى غاية ترفية ، وليس ثم ضرورة أساسية لها .

ما دامت الطوائف قد استكملت استقلالها ، فإن كل واحدة منها ، كانت تسعى إلى الحفاظ على هذا الاستقلال من ناحية ، وإلى مد حدود سلطانها على حساب غيرها من ناحية أخرى ، وكان ذلك يتطلب نفقات باهظة ، فسعى ملوكها إلى إرهاق رعاياهم بالفرائض والأموال . ويشير ابن حزم فى إحدى رسائله إلى إنهم ابتدعوا جزيةً على رءوس المسلمين ، يسمونها قطيعةً وتؤدى مشاهرةً ، وضريبةً أخرى على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، ورسومًا تدعى القبالات ، تؤدى على ما يباع فى الأسواق ، ويشير أيضًا إلى تسليطهم اليهود فى جباية هذه الأموال ... الأكثر من ذلك أن الملك منهم فى حربه ضد غيره من ملوك الطوائف ، كان يبيح رعية خصمه وهم مسلمون لجنوده نصارى ومسلمين .

لم يقف الملوك عن هذا الحد فإنهم فى اصطراعهم مع بعضهم البعض سعوا إلى طلب العون من الملوك النصارى ، وكان هؤلاء يؤيدونهم بجنودهم ، فيتمكنون من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم - على قول ابن حزم - يحملونهم أسارى إلى بلادهم .

لدينا أمثلة عديدة ، فقد تحالف المأمون بن ذى النون (١٠٤٣/٤٣٥ - ١٠٧٥/٤٦٧) ملك طليطلة مع غرسية García Sánchez ملك نبرة (١٠٣٥ - ١٠٥٤) ضد المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، وتحالف هذا الأخير مع فرذلند Fernando ملك ليون (١٠٣٥ - ١٠٦٥م) ضد خصيمه المسلم ... وهكذا نجد الملكين النصرانين يعيشان فى وقت واحد بمساعدة مسلمين فى أراضى مسلمين ، واستمر هذا العيث ثلاث سنوات (١٠٤٣/٤٣٥ - ١٠٤٦/٤٣٨) .

لدينا مثال آخر، فقد تحالف المعتمد ملك إشبيلية مع أذفونش Alfonoso VI (١٠٦٥ - ١١٠٩م) ملك ليون ، وأدى له خمسين ألف دينار ، مقابل أن يعينه على فتح غرناطة ، على أن تكون المدينة للمعتمد ، وذخائر القلعة الحمراء لأذفونش ، وفى الوقت نفسه سعى ملك غرناطة عبد الله بن بلقين (١٠٧٣/٤٦٥ - ١٠٩٠/٤٨٣) للتحالف مع أذفونش نفسه ، دفعًا لأذاه ونكايةً فى المعتمد .

ولا بد بطبيعة الحال من مقابل ، وكان المقابل فى البداية مالاً ، يؤدى إلى الملك النصرانى ، لم يلبث أن تحول إلى جزية ، يقع عبؤها على الرعايا الأندلسيين ، ثم تحول إلى تنازل عن أراض إلى جانب الجزية .

والحقيقة إن الريادة فى هذا المجال تعود إلى الخليفة هشام المؤيد الذى تنازل لأمير قشتالة فى سنة (١٠١٠/٤٠١) عن مائتى حصن ، سبق أن ضمها

أسلافه - أمويين وعامريين - مقابل توقى عدوان هذا الأمير ، واتحاده معه ضد خصومه المنازعين له من البربر .

سياسة التنازلات هذه كانت تؤدى إلى مزيد من الدعم للجبهة النصرانية ، وإلى مزيد اخر من العدوان . وعندما كان يتوقف ملك من ملوك الطوائف عنها، فإن عقابه يكون شديداً ، فقد امتنع المعتمد عن أداء الجزية فى سنة (١٠٨٣/٤٧٥) ، وكان جزاؤه أن اقتحم أذفونش مملكته ، واخترقها حتى وصل إلى بحر الزقاق ، وخاض بفرسه فى أمواجه .

إلى جانب ذلك فإن ملوك الإسبان وأمراءهم كانوا يستغلون تواجدهم فى مدينة إسلامية ضيوفًا عليها ، من أجل التجسس ، وكذا كانت حال أذفونش ، حين أقام بطليطلة ضيفاً على ملكها إبان نزعه من ملكه .

الخلاصة إن الأوضاع السياسية العامة فى بلاد الأندلس على عهد الطوائف كانت غايةً فى التردى .

يقول أذفونش الذى دعا نفسه (بالإنبيطور ذى الملتين) أى إمبراطور النصارى والمسلمين ، يقول لسفير المعتمد إليه : « كيف أترك قومًا مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم ، كالمعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل فى الذب عن نفسه سيفاً ، ولا يرفع ضيماً ولا حيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغانى والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سدًا » .

فى عام واحد هو عام (١٠٦٣/٤٥٦ - ١٠٦٤) سقط معقلان هامان فى أيدى النصارى، هما قلمرية فى شمالى البرتغال الحالية وبربشتر Barbastro فى مملكة سرقسطة .

أثار ذلك شجون ابن حيان (ت١٠٧٦/٤٦٩) مؤرخ الأندلس الكبير ، وهو يعيش آخر أيامه فيقول : « ولأشد مما أفشينا عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة وأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زمانها ... » .

فى سنة (١٠٨٥/٤٧٨) وقعت الواقعة ، فقد سقطت طليطلة .

تخاذل ملوك الأندلس ـ باستثناء ملك بطليوس ـ عن نجدتها ، ولم ينصتوا إلى صريخ القاضى أبى الوليد الباجى (ت٤٧٤هـ/١٠٨١م) عندما دعاهم إلى الجهاد ذبًا عنها ، وانصرف الواحد منهم إلى أمور مملكته وحدها ، بل إن المعتمد ـ وقد ملأه الرعب من أذفونش ـ لم يوظف هذا الرعب فى مساندة المدينة التاعسة ، ولم يتحرك لمواجهة ملك ليون ، إلا بعد أن تهدد هذا مملكته نفسها ، كما فرض حصاره على سرقسطة .

أحدث سقوط طليطلة هزةً ، عمت أقطار الأندلس .

يقول الشاعر ابن العسال (ت١٠٩٤/٤٨٧) :

حثوا رواحلكم أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط[1]

لم يجد ملوك الأندلس ، إلا أن يطلبوا معونة إخوانهم عبر البحر ، وكانت قد بزغت عندهم قوة صحراوية كبيرة ، هى المرابطون وأميرهم يوسف بن تاشفين .

(١) مثلما كانت طليطلة واسطة الوطن الأندلسى ، كانت فلسطين واسطة الوطن العربى ... فتأمل .

فى العام التالى جرت معركة الزلاقة ، وانتصر المسلمون المتحدون ـ أندلسيين ومرابطين ـ على خصيمهم الليونى ، الذى لم يتبق من جيشه البالغ خمسين ألفاً أو نحوها سوى مائة أو مئات .

لكن .. هل تعلمّ المسلمون من أخطائهم ، واستفادوا من تجاربهم .

بعد المعركة مباشرةً ، انقلب يوسف بن تاشفين إلى بلاده ، وكان بإمكانه ـ إذا أراد ـ أن يسترد طليطلة على الأقل ، لكنه لم يفعل ، ففوت على المسلمين فرصةً عزيزةً ، وهيأ لأذفونش الفرصة ، كى يلتقط أنفاسه ، ويبعث فى طلب عون إخوانه النصارى فى شبه الجزيرة وخارجها ... وكان هؤلاء يتهيئون لأولى الحملات الصليبية .

فى الوقت نفسه لم يلبث أن دبت النزاعات بين الأندلسيين بعضهم ضد بعض ، وبينهم وبين المرابطين ، بل سعى عدد منهم إلى الاتصال بالنصارى ، ولم يراعوا أن هؤلاء لا عهد لهم ، فلدى إستيلائهم على طليطلة ، اقتحموا مسجدها الجامع بعد شهرين ، وحولوه إلى كنيسة جامعة ، بخلاف ما اتفق عليه فى عهد التسليم .

المقارنة مريرة بين موقف المسلمين بعد الزلاقة ، وبين موقف النصارى بعد طليطلة ، فقد استثمر هؤلاء استيلاءهم على هذه المدينة أعظم استثمار ، إذ جعلوها عاصمةً لهم ، وكون العاصمة على التخوم مع الأعداء ، يشكل حافزاً لمواصلة النضال .

ظهر أثر ذلك فى تعثر الحملة الإسلامية للاستيلاء على حصن ليبط فى سنة (١٠٨٨/٤٨١) ، مما دفع يوسف بن تاشفين فى جوازه الثالث ثم فى جوازه الرابع إلى إزالة ملوك الأندلس فيما عدا ملك سرقسطة .

على إنه من لا شك فيه أن التفاوت الحضارى بين الأندلسين والمرابطين ،

فى الزهد والانصراف عن هذا المتاع .

وعليه فقد تناهت إلينا أسماء كبيرة ، بينها ابن زيدون (ت٤٦٣/ ١٠٧١) ابن عمار (ت٤٧٧هـ) ابن اللبانة (ت٤٨٨هـ) .

أما فى غير ذلك من فنون ، فد تناهت إلينا أسماء أخرى ، بينها ابن حزم (ت٤٥٦/١٠٦٤) المفكر ، وابن حيان (ت٤٦٩ ـ ١٠٧٦) المؤرخ ، ابن عبد البر (ت ٤٦٣/١٠٧٠) المحدث ، وأبو الوليد الباجى (ت٤٧٤/١٠٨١) الفقيه، وابن سيدَه (ت٤٥٨/١٠٦٦) عالم اللغة ، وأبو عبيد البكرى (ت٤٨٧/١٠٩٤) الجغرافى والزّرقالى (ت٤٧٢/١٠٨٠) عالم الفلك ، وابن وافد (ت٤٦٦/ ١٠٧٤) عالم النبات .

الفصل الثالث عشر

الأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين

١ ـ الأندلس فى عصر المرابطين :

كان يوسف بن تاشفين قد سيطر على المغرب الأقصى والصحراء وامتد بهذه السيطرة إلى شطر المغرب الأوسط ، وكان لديه شعور قوى بانتمائه إلى أمة إسلامية واحدة ، مهما تناءت أقطارها ، ومن ثم فالجهاد فرض وواجب ، لدفع الأخطار التى تتهدد هذه الأمة فى أحد أقطارها .

(أ) الزلاقة والفتح المرابطى :

كانت بلاد الأندلس قد توزعتها ممالك الطوائف ، وشرعت ممالك الشمال النصرانية فى نهش هذه الممالك الواحدة بعد الأخرى ، ثم سقطت طليطلة فى سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ .

لم يجد أهل الأندلس ـ وقد عجزوا عن التصدى لهذا المد النصرانى الكاسح ـ إلا أن يتوجهوا إلى أمير المسلمين ، يطلبون النصرة والمعونة ، ووفدت إلى حاضرته مراكش جماعات منهم ، وأتاه كتاب المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، كما أتته كتب غيره من ملوك الأندلس .

أسفرت المفاوضات بين الطرفين ، على أن يتعاون الجميع ـ أندلسيين ومرابطين ـ فى محاربة النصارى ، وأن يؤمن ملوك الطوائف فى ممالكهم ، ومن جهة أخرى أن يسلموا أمير المسلمين ثغر الجزيرة ، ليصير قاعدة لجيشه . وفى ربيع الأول ٤٧٩ / يونيو ١٠٨٦ عبر يوسف بن تاشفين وجنوده المرابطون إلى الأندلس ، وانضمت إليه جيوش الطوائف ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمال بطليوس ، قرب حدود البرتغال الحالية . ويعرف

هذا السهل عند المسلمين بالزلاقة ، وعند النصارى Sagrajas .

كان أذفونش السادس ملك ليون يحاصر فى هذه الأثناء مدينة سرقسطة ، فرفع الحصار عنها ، وبعث إلى سائر النصارى يستمدهم فهرعوا لنجدته وانثالت إليه متطوعة من أنحاء إسبانيا وأوربا ، واكتمل له نحو خمسين ألفًا ، فى حين كان جيش المسلمين يناهز الأربعين ألفًا .

عسكر النصارى إزاء المسلمين ، يفصل بينهما نهر وادى أنة ، وسعوا إلى خديعتهم فى تحديد يوم المعركة ، وحاولوا أن يأخذوهم على غرة ، لكن هؤلاء اتخذوا أهبتهم لمواجهتهم . وعندما بدأ النصارى هجومهم فى يوم الجمعة ١٢ من رجب ٤٧٩ / ٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦ ، واشتبكت مقدمتهم بقيادة ألبار هانش Alvar Fanez بمقدمة جيش المسلمين بقيادة المعتمد ، اختل نظام المسلمين ، وارتد معظمهم تجاه بطليوس ، ولم يثبت سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ، ثم هاجم أذفونش القوات المرابطية ، وردها عن مواقعها ، لكن يوسف ابن تاشفين دفع فى ذلك الحين بقواته الاحتياطية ، ليضرب قلب الجيش النصرانى ، ثم هاجم مؤخرته ، وأوقع الفوضى فى سائره ، واستفحل القتل فى النصارى ، وكانت الخاتمة عند مغيب شمس هذا اليوم ، هو هجوم حرس يوسف من السودان ، واستطاع أحدهم أن يطعن أذفونش نفسه طعنة نافذة ، مما اضطره ومن تبقى معه ، إلى أن يتراجعوا والمسلمون فى إثرهم ولم ينقذ البقية الباقية منهم إلا هبوط الليل .

أسفرت المعركة عن هلاك الجيش النصرانى الذى لم يتبق منه سوى مئات، لاذوا بحياتهم مع مليكهم فى هربه الطويل إلى طليطلة . وأمر أمير المسلمين بقطع رءوس القتلى ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن فوقه للصلاة ، ثم وزعت الرؤس على قواعد الأندلس والمغرب . وليس معنى ذلك أن خسائر المسلمين

كانت هينة ، فقد بلغت عدة آلاف ، بينهم عدد من فرسان المرابطين وأبطالهم المعدودين والأندلسيين .

كان النصر فى الزلاقة عظيمًا ، وكان من واجب يوسف بن تاشفين أن يسعى لأن يجنى ثمرات هذا النصر ، وأولها أن يسترد طليطلة ، ولا نعرف السبب فى انصرافه عن ذلك ، وربما كان موت ولده وولى عهده الأمير أبى بكر - وكان قد استخلفه على مراكش - وربما كان ما راعه من عودة الخلافات بين ملوك الطوائف أنفسهم .

عاد أمير المسلمين إلى المغرب ، ولم يلبث أن عاد الاضطراب إلى الأندلس، وعاود النصارى عدوانهم ، فقد كان لهم حصن يقع داخل الأراضى الإسلامية هو حصن لَيط Alédo ، ومن هذا الحصن كان يخرج النصارى وعدتهم ثلاثة عشر ألفًا بينهم ألف فارس ، فيعيثون فسادًا حولهم ، بينما كان السيد القنبيطور El Cíd El Campeador وهو Don Rodrigo Díaz de Vivar يعيث فى مملكة بلنسية Valencia .

لما كانت الأرض المجاورة لحصن لييط تابعةً للمعتمد ، فإنه عبر البحر بنفسه إلى يوسف ، وعاود طلب نجدته ، ووعده يوسف بها .

فى ربيع الأول ٤٨١ يوليو ١٠٨٨ عبر يوسف بن تاشفين للمرة الثانية، وسار بقواته إلى لييط ، وانتظر أن توافيه جيوش الأندلس ، لكن استجابة ملوكها له كانت محدودة ، فبادر بحصار الحصن ، لكنه لم يسقط فى يديه ، واضطر إلى أن يرفع الحصار ، ويعود أدراجه إلى المغرب .

مع أن النصارى فى حصن لييط سارعوا بعد انصراف المرابطين إلى إخلائه، لأنهم تبينوا صعوبة الدفاع عنه ،إلا أن يوسف كان قد امتلأ قلبه بالسخط على أهل الأندلس ، ووقع فى يقينه إنه من أجل أن يدفع ممالك النصارى ، عليه أولاً

أن يقضي على ممالك الطوائف ، ووافقه جمهور من استفتاهم من الفقهاء ، بينهم الإمام الغزالي .

استطاع يوسف بن تاشفين في عبوره للمرة الثالثة في عام ١٠٩٠/٤٨٣ ، والمرة الرابعة في عام ٤٨٤ / ١٠٩١ أن يزيل معظم هذه الممالك ، وكانت عمليةً محزنةً ، حيث اصطرع المسلمون بعضهم ضد بعض ، وانتهى المعتمد نهايةً فاجعةً في أغمات .

صارت لأمير المسلمين دولة إسلامية واسعة ، تمتد من نهر التاجه بالأندلس إلى تخوم السودان ، ونجح قبل موته في سنة ٥٠٠ / ١١٠٦ في أن يسترد قواعد أندلسية ، بينها بلنسية ، التي كان السيد القنبيطور قد استولى عليها .

(ب) الأندلس وعلي بن يوسف بن تاشفين :

ولي علي بن يوسف بن تاشفين (١١٠٦/٥٠٠ ـ ١١٤٢/٥٣٧) ، وكان لديه من خلال أبيه الشيء الكثير ، ورغمًا عن إن دولة المرابطين كانت ما تزال في عنفوانها ، إلا إنه في عهد علي نفسه ظهرت دعوة المهدي بن تومرت في الموحدين ، وقد انصرف هذا إلى أن يرمي المرابطين بكل نقيصة ، وأيدته قبيلته مصمودة المنافسة لقبيلة لمتونة .

استغرق الصراع بين المرابطين والموحدين السنوات الأخيرة من حياة علي ابن يوسف إلى أن مات ، فاستغرق عهد ولده ، إلى أن انتهت دولتهم في سنة ١١٤٦/٥٤١ .

انقسمت بلاد الأندلس في عصر المرابطين إلى خمس ولايات ، هي قرطبة ، إشبيلية ، غرناطة ، بلنسية ، مرسية ، وشكلت سرقسطة ولاية سادسة ، قبل أن تسقط في أيدي نصارى أرغونة ، واختص المرابطون أنفسهم بالولاية

والإمارة دون أهل الأندلس ، وكان آخر من ولي منهم أبو زكريا يحيى بن غانيّة (ثم أبو بكر بن مزدلي) .

على أنه فيما عدا هذه المناصب ، اعتمد المرابطون على أهل الأندلس خصوصًا في منصب الكتابة ، فهم وإن كانوا على دراية بالعربية ، إلا إنهم لم يكونوا ملمين بأسرارها كافة ، وهكذا نبغ نفر من الكتاب الأندلسيين ، مثل ابن أشباط وابن القصيرة وابن الجد وابن عبدون .

كانت عدة الجيش المرابطي بالأندلس سبعة عشر ألف فارس ، موزعين على أنحاء البلاد ، لكنه كان يعهد في الدفاع عن الثغور إلى الأندلسيين ، لخبرتهم في هذا المجال ، وامتلكوا بالأندلس أساطيل قويةً دائمة ، قواعدها في ألمرية وقادس والجزيرة الخضراء وطريف وسبتة .

لم يهمل المرابطون أمر الجهاد ، وخاضوا معارك عديدةً هامة ، وبينها معركة أقليش Uclés في سنة ١١٠٨/٥٠١ .

اعتقد ألفونش السادس ملك ليون أن موت غريمه يوسف بن تاشفين ، يعني أن يعاود الظهور بالساحة الأندلسية ، فبعث بحملة عاثت في إقليم إشبيلية ، مما حفز علي بن يوسف لأن يرد ، بأن أمر أخاه تميمًا ـ والي غرناطة ـ فتوجه إلى حصن أقليش ، وهو حصن صار للنصارى بعد سقوط طليطلة ، وضرب الحصار عليه .

أراد ألفونش أن ينجد الحصن ، فأرسل حملةً من سبعة آلاف ، بقيادة ألبر هانش أكبر قواده ، ومعه سبعة قوامس ، ومعه أيضًا ولده شانجه Sancho ، وكان صبيًا صغيرًا في الحادية عشرة من عمره ، وذلك من أجل أن يبعث الحماسة في نفوس جنوده .

لما كان حجم الجيش الليونى كبيراً ، فإن تميماً حدثته نفسه بالانسحاب ، لكنه تحت ضغط قواده قرر الصمود ، ودارت رحى معركة كبيرة ، تشبه الزلاقة فى ضراوتها ، وقتل الأمير شانجه ، وقتل معه القوامس السبعة ، لذلك دعيت هذه المعركة التى انتصر فيها المسلمون بمعركة القوامس السبعة La Batalla de los Siete Condes .

نتيجةً للمعركة فإن أذفونش مات فى العام التالى غماً لفقد ولده الوحيد ، على أن الأهم هو إنه بسقوط أقليش سقطت عدة حصون مجاورة فى أيدى المسلمين ، وقاد على بن يوسف سلسلة من الغزوات لأراضى النصارى ، واستولى فى سنة ١١٠٩/٥٠٣ على طلبيرة Talavera ، وحاصر طليطلة حاضرة ليون ، وكان يدافع عنها ألبر هانش ، لكنه لم يستطع أن يأخذها لمناعتها ، فاكتفى بتخريب أحوازها .

فى الوقت نفسه توجهت حملة مرابطية أخرى إلى الغرب ، حيث كانت مملكة البرتغال فى طور النشوء ، واتخذ أميرها الرنك Enriqui de Borgoña (١١٠٩ ـ ١١٢٦) قلمرية عاصمةً له ، فاسترد المسلمون يابرة Evora وأشبونة وشنترين ووصلوا فى زحفهم إلى قريب من قلمرية ، ولم يستطع الرنك ـ وكان زوجاً لابنة أذفونش السادس ـ أن يدفع هذه القوات .

لم يغفل المرابطون أمر سرقسطة ، وهى مملكة الطوائف الوحيدة التى كانت خارجةً عنهم ، وكان صاحبها عماد الدولة بن هود قد ارتمى فى أحضان النصارى ، وأفتى الفقهاء بخلعه ، ونجح المرابطون فى دخول المدينة فى سنة ١١١٠/٥٠٣ ، واتخذوا منها قاعدةً لغزو إمارة برشلونة .

كان الاستيلاء على سرقسطة حافزاً للمرابطين إلى أن يتطلعوا إلى الجزائر الشرقية Islas Baleares وهى ميورقة Majorca ومنورقة Minorca ويابسة Ibiza .

كانت الجزائر الشرقية قد سقطت فى أيدى مدينتى بيشه Pisa وجنوه Genova وإمارة برشلونة ، فأرسل المرابطون فى سنة ١١٥/٥٠٩ ، عمارةً بحرية بقيادة أمير البحر الأندلسى أبى عبد الله بن ميمون ، تمكنت من استعادة الجزر ، وبذا دفع المرابطون خطراً كبيراً يتهدد الأندلس من الشرق .

على أن المسلمين مالبثوا أن أصيبوا فى سنة ١١١٨/٥١٢ بنكبة كبيرة فى سرقسطة ، تشبه نكبتهم فى سنة ١٠٨٥/٤٧٨ بفقد طليطلة .

نشأت إمارة أرغونة فى جنوبى جبال البرتات ، ثم اتحدت مع مملكة نبرة لتنشأ مملكة جديدة على حدود الثغر الأعلى ، واستطاع أذفونش الأول ملك أرغونة (١١٠٤ ـ ١١٣٤) أن يستولى على بعض قواعد سرقسطة ، ومنها بريشتر ووشقة ، ولم يلبث أذفونش هذا الذى عرف بالمحارب El Batallador وعرف عند المسلمين بابن رُذمير أن أنشأ سلسلة من الحصون قريبةً من سرقسطة ، وانتهز فرصة شغل المرابطين بالبرتغال وحملاتهم إليها وفرض حصاره على سرقسطة ، وأتته طوائف عديدة من الصليبيين من أنحاء أوربا ، واستمر حصار المدينة حتى نفدت أقواتها ، وحدث أن مات واليها المرابطى دون أن يخلفه أحد ، ودب الذعر فى نفوس أهل المدينة ، وعبثاً انتظروا نجدة المرابطين ، لكنهم بقيادة أميرهم تميم تلكئوا فى نجدتهم ، واضطر هؤلاء إلى طلب الصلح ، على أن يؤمنهم النصارى ، ويسمحوا لمن شاء بالخروج من المدينة .

ما كاد أذفونش يدخل سرقسطة ، حتى جعلها عاصمةً له ، وجعلها أيضاً قاعدةً لمتابعة غزواته ، ونشأت بينه وبين المرابطين ، يقودهم الأمير إبراهيم ابن يوسف معركة كبيرة فى سنة ١١٢٠/٥١٤ هى معركة قُتندة Cutanda ، هزم فيها المسلمون وقتل عدد كبير منهم ، وبينهم القاضى الشهير أبو على

الصّدفى ، وفى أعقاب المعركة استولى أذفونش على دروقة Daroca وقلعة أيوب Calatayud ، وامتدت حدوده إلى جنوب نهر إبره .

كان لما أحرزه أذفونش من انتصارات فى شرقى الأندلس صدى كبير حفزه فى سنة ١١٢٥/٥١٩ ، لأن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، حتى وصل إلى ساحل البحر مما يلى غرناطة ، وأيده النصارى المعاهدون فى غزوته هذه بعدة آلاف من مقاتلتهم ، وأخفق المرابطون فى التصدى له .

نتج عن نقض المعاهدين لعقد الذمة أن هرب عدد منهم صحبة ملك النصارى فى عوده شمالاً ، وأفتى ابن رشد (الجد . ت ١١٢٦/٥٢٠) بتغريب الباقين ،فرحل معظمهم إلى المغرب ، وأسلم بعض هؤلاء ، وعاد بعضهم الآخر إلى الأندلس بعد قيام دولة الموحدين .

ترتب على هذه الغزوة أن طمح أذفونش المحارب للاستيلاء على مدينة إفراغه Fraga حتى يصل إلى مدينة طرطوشة Tortosa الهامة ، وحاصر إفراغه حصاراً شديداً ، ورفض عروض أهلها فى أن يدخلها صلحاً .

عندما تنبه المسلمون إلى حقيقة رغبة أذفونش ، فإن على بن يوسف أرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة أبى زكريا يحيى بن غانية ، ودارت تحت أسوارها معركة كبيرة ، انتهت إلى هزيمة شديدة للنصارى ، تشبه هزيمة أقليش ، وذلك فى سنة ١١٣٤/٥٢٨ ، وكان لهذه الهزيمة أثرها فى موت الملك النصرانى خلال المعركة أو بعدها .

بيد أن المرابطين لم يستثمروا انتصارهم الكبير هذا فى أن يزحفوا إلى سرقسطة ويستردوها ، وهم هنا يكررون الغلطة نفسها التى ارتكبوها قبل خمسين عاماً ، بعد انتصارهم فى الزلاقة .

كانت معركة إفراغه هى خاتمة المعارك الكبيرة التى خاضها المرابطون فى الأندلس ، لأنهم تفرغوا بعدها ، لمناهضة الثورات التى قام بها الأندلسيون ضدهم وكذلك لمناهضة الموحدين الذى قاموا ضدهم بالمغرب .

لجا نهاية العصر المرابطى بالأندلس :

لم ينس الأندلسيون ما فعله المرابطون بهم ، بعد سحق دول الطوائف ، وما جرى من إذلالهم ، كما صدمهم ما اتسمت به السياسة المرابطية من تزمت ضدهم وتعسف ، حفزهم لأن يقوموا فى سنة ١١٢١/٥١٤ بثورة كبيرة فى قرطبة أعلنوها « ذبا عن الحرم والدماء والأموال » واقتحموا قصر الإمارة ، وأحرقوا دور المرابطين ، وأرغموهم على الإنسحاب من المدينة .

ومع أن على بن يوسف استطاع لدى عبوره فى العام التالى أن يرد قرطبة إلى الطاعة ؛ إلا أن غضب الأندلسيين لم يتوقف حتى فى عهد ولاية ولده تاشفين عليهم ، وقد تعامل معهم على نحو طيب .

عندما ترامت إلى الأندلس أخبار الصراع بين المرابطين والموحدين وقعت مجموعة من الثورات فى أنحاء البلاد ، وتزامنت هذه الثورات ، وقام على بعضها قضاة ورجال دين ، أشهرهم أحمد بن قَسّى ، وهو زعيم طائفة من المتصوفة دعوا بالمريدين ، تركزت ثورتهم فى جنوبى البرتغال الحالية .

ومثلما حدث فى زمن الطوائف ، فقد استنصر بعض زعماء هذه الثورات بملوك النصارى ، وبخاصة اذفونش السابع ملك ليون (١١٢٦ ـ ١١٥٧) Alfonso Raimúndez ، وقد سعى أذفونش هذا ـ وقد عرف بالقيصر ، وعرف عند المسلمين بالسُّلَيطين ـ لأن يستعيد أمجاد جده لأمه أذفونش السادس ، واستطاع فى النهاية أن يدخل قرطبة مسانداً لثوارها ، ولم يغادرها إلا عندما علم باستعداد الموحدين لاقتحام الأندلس .

2 - الأندلس فى عصر الموحدين :

(أ) عبد المؤمن بن على وبدايات السيادة الموحدية :

استطاع عبد المؤمن بن على بعد سنوات من خلافته ، أن يؤسس للموحدين دولةً كبيرةً ضمت أقطار المغرب الثلاثة ، كما دفع عدوان النورمان عن إفريقية ، وضرب على أيدى العرب من بنى هلال .

على أن عبد المؤمن لم يغفل النظر عن بلاد الأندلس ، وكان قد كثر بها الثوار ، ودخل بعضهم فى طاعة الموحدين ، وتردد بعضهم الآخر فى دخولها ، أو استمر فى ثورته ، ومن هؤلاء بنو غانيّة ، وينتمون إلى المرابطين ، وقد انسحبوا إلى دانية Denia ، ومنها إلى الجزائر الشرقية ، ومنهم أيضًا محمد بن سعد بن مردنيش وصهره ابن همشك فى مرسية ، وأضحى الصراع بين الموحدين وهؤلاء سجالاً .

فى هذه الأثناء كانت حركة الاسترداد قد اشتد ساعدها ، واستطاع أذفونش السابع أن يستولى على مدينة قورية Coria فى الثغر الأدنى ، كما إن سائر القواعد الهامة فى الثغر الأعلى سقطت الواحدة تلو الأخرى ، وعلى رأسها طرطوشة ولاردة Lérida ، وإفراغه ومكناسة Mequinenza ، والأهم هو استيلاء الحملة البحرية التى شاركت فيها قوات من ليون ونبرة وأرغونة فضلاً عن بيشة وجنوة على ثغر ألمرية الهام فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ .

كان هم الموحدين الأكبر هو استرداد المرية ، فتوجهت إليها حملة بقيادة عثمان بن عبد المؤمن ، وشدت الحصارعليها ، وكان يدافع عنها أذفونش السابع وحليفة المسلم ابن مردنيش ، ولما لمس هذا الأخير استبسال الموحدين فى استعادة المدينة ، خجل من نفسه ، وتخلى عن حليفه النصرانى ، الذى لم يجد بدًا من أن يتخلى بدوره عن المدينة ويدخلها المسلمون فى سنة ١١٥٧/٥٥٢ ،

وقد مات فى السنة نفسها بفجيعته فى فقدها .

عاود ابن مردنيش وابن همشك الثورة مرة أخرى ، وتهددا قرطبة وإشبيلية ، واستوليا على غرناطة ، وحوصرت الحامية الموحدية بقلعة الحمراء ، فأرسل عبد المؤمن ولده أبا يعقوب يوسف فى عشرين ألفًا ، فتمكن من الانتصار على الثائرين فى سنة ١١٦٠/٥٥٧ واستعاد منهما المدينة .

إبان شغل الموحدين بشرقى الأندلس ، شرع أذفونش الأول ملك البرتغال Affonso Inrique (ويعرف عند المسلمين بابن الرّنك) فى غزو القواعد الإسلامية فى غربى الأندلس ، واستعان بعدد من الصليبيين ، كانوا فى طريقهم إلى بلاد الشام - فى حصار مدينة أشبونة ، وبعد أن اقتحمها فى سنة ١١٤٧/٥٤٢ أعمل السيف فى أهلها ، واسترق من كان على قيد الحياة منهم، ثم تقدم إلى شنترين ثم باجة ، وأخذ يتهدد بطليوس .

لم يستجب عبد المؤمن لنداءات غربى الأندلس ، وسعى إلى أن يهيئ للموحدين قاعدةً تخدمهم لدى عبورهم ، فأمر بتجديد قاعدة جبل طارق بحيث صارت مدينة جديدة دعيت بمدينة الفتح أو جبل الفتح ، واكتمل بناؤها فى سنة ١١٦٠/٥٥٥ ، وعبر عبد المؤمن بنفسه إليها ، ليحتفل بهذه المناسبة .

عندما تمادى ملك البرتغال فى عدوانه ، تهيأ عبد المؤمن للغزو ، فخرج من مراكش فى جيش كبير ، يقدره البعض بمائتى ألف ، وكان فى تخطيطه أن يتوجه به إلى الجهات النصرانية جميعها ، وليس إلى جهة البرتغال وحدها ، لكن أجله وافاه قبل أن يعبر مضيق جبل طارق فى سنة ١١٦٣/٥٥٨ .

(ب) أبو يعقوب يوسف وشنترين :

خلف أبو يعقوب يوسف أباه فى حكم هذه الدولة الواسعة ، فاتجه إلى أن يفيد من التناقض الذى ظهر بين ليون والبرتغال ، فتحالف مع الأولى ، وأفاد من هذا الحلف فى دفع هجوم البرتغاليين على مدينة بطليوس فى سنة ١١٧٠/٥٦٦ .

انصرف هم الموحدين بعد ذلك إلى خصيمهم ابن مردنيش الذى تحداهم سنوات طويلة فى شرقى الأندلس ، واستمالوا إليهم صهره ابن همشك ، وما زالوا يضغطون على ابن مردنيش إلى أن ضعف أمره ثم مات فى سنة ١١٧٢/٥٦٧ ، ودخل الموحدون مرسية ، وأعلن بنو مردنيش ولاءهم لهم ، ثم تزوج الخليفة بابنة أميرهم السابق ، كما تزوج ولده أبو يوسف يعقوب بابنته الأخرى .

بعد أن هدأ أمر الثوار فى الأندلس عاد الصراع مرة أخرى بين الموحدين من ناحية وليون والبرتغال من ناحية أخرى ، ولم يسفر هذا الصراع عن نتيجة حاسمة ، مما جعل الخليفة يتهيأ فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ لحملة كبيرة ، وجهتها مدينة شنترين ، لأنها كانت القاعدة التى ينطلق منها البرتغاليون لغزو أراضى المسلمين .

فى سنة ١١٨٤/٥٨٠ سار أبو يعقوب ومعه جيش يربو عدده على المائة ألف ، ضم إلى جانب الموحدين عربًا هلالية ، ومتطوعة أندلسيين ومغاربة ، وكان أذفونش ملك البرتغال قد استعد لهذه الهجمة الموحدية ، ودارت معارك عنيفة بين الفريقين ، هلك خلالها آلاف من المسلمين والنصارى ، وكادت المدينة تسقط فى يدى أبى يعقوب ، وشرع النصارى يهربون إلى القصبة .

بيد إن الخليفة أمر بعد أيام قليلة من الحصار بالكف عن القتال والانسحاب

إلى إشبيلية ، ولا نعلم على وجه اليقين السبب الذى حدا به إلى ذلك ، وربما كان السبب هو أن فرذلند الثانى Fernando II ملك ليون (١١٥٧ ـ ١١٨٨) هب لنجدة إخوانه المحاصرين ووجد الخليفة أن لا طاقة له بقتال عدوين معًا .

لم يحسن المسلمون تنظيم صفوفهم لدى ارتدادهم عن شنترين ، مما جعلهم هدفًا لهجمات مضادة من البرتغاليين ، ومع أنهم قاتلوا ببسالة ، وفتكوا بأعداد كبيرة من خصومهم ، إلا أن خليفتهم أصيب بجراحات خطيرة ، فحمله رفاقه على محفة ، وأسلم الروح قبل أن يصل جيشه إلى إشبيلية .

(جـ) المنصور والأربك :

لدى وفاة أبى يعقوب يوسف ، خلفه ولده أبو يوسف يعقوب الذى تلقب بالمنصور ، ويعد عصره هو العصر الذهبى للدولة الموحدية ، وقد بدأ بالتصدى لبنى غانية الذين رفعوا لواء المرابطين ، وسيطروا على الجزائر الشرقية ، وضايقوا الموحدين فى شرقى الأندلس ، ثم قاموا بغزوتهم فى عقر دارهم بإفريقية ، لكن أبا يوسف تمكن من هزيمتهم فى سنة ٥٨٣ / ١١٨٧ .

انتهز شانجه الأول Sancho I ملك البرتغال (١١٨٥ ـ ١٢١١م) هذه الفرصة واستعان بحشود صليبية ، كانت فى طريقها إلى المشرق ، ليستولى على شلب فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، ولما كانت هذه المدينة عظيمة الأهمية بالنسبة للمسلمين ، فإن المنصور أعلن الجهاد ، وأتته متطوعة وأجناد ، وبذا استطاع أن يستردها بعد عامين من سقوطها فى أيدى النصارى .

كانت الحملة إلى شلب مقدمة لحملة المنصور الكبيرة فى عام ١١٩٥/٥٩١ ، حين عبر إلى الأندلس ، صحبة جيش كبير يناهز المائة ألف من الموحدين والعرب سوى الأندلسيين ، وتوجه إلى إشبيلية ، ومنها إلى قرطبة ،

ثم خرج من هذه المدينة صوب قلعة رباح Calatravá .

عندما ترامت أنباء العبور إلى ملك قشتالة أدفونش الثامن (١١٥٨-١٢١٤م) عقد اجتماعا لرجال مملكته بطليطلة يستشيرهم ، وبعث فى عون ملكى ليون ونبرة ، ولم ينتظر أن يوافيه هذا العون ، وغادر المدينة بجيشه متجهاً إلى قلعة رباح ، وعسكر فى الأرك Alarcos ، وهو حصن من أعمال القلعة .

عسكر المنصور على مقربة من معسكر غريمه ، وأشار عليه أصحابه الأندلسيون وعلى رأسهم كبيرهم ابن صناديد ، بأن يدفع بمعظم الجيش إلى المعركة ، ويترك قوات احتياطية فى الخلف ، تهرع إلى نجدة إخوانهم فى حال كسرهم . وقد وافق المنصور على هذه الخطة ، وجعل أبا يحيى بن أبى حفص قائداً عاماً للجيش .

بدأت المعركة فى يوم الأربعاء ٩ من شعبان ٥٩١ / ١٨ من يوليو ١١٩٥ بهجوم من القشتاليين على قوات القلب التى يقودها الشيخ أبو يحيى معتقدين أن الخليفة هناك ، وكان الصدام شديداً ، لدرجة أن قتل أبو يحيى نفسه . عندئذ تقدمت قبائل العرب والمتطوعة ، وأحاطت بالنصارى من كل جانب ، وما زالوا بهم ، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر ناحية حصن الأرك، لكن المسلمين حالوا بينهم وبين ذلك ، واستحر القتل فيهم ، ثم أحاط المسلمون بحصن الأرك ، يظنون أن الملك اعتصم به ، لكنه كان قد غادره فى بعض أصحابه إلى طليطلة ، ودخل المسلمون الحصن عنوةً ، وافتدى جنوده أنفسهم ، بأن تم اطلاق خمسة آلاف أسير مسلم .

كانت معركة الأرك من المعارك الكبيرة التى نصرا الله فيها المسلمين بالأندلس ، بحيث تعد أختاً للزلاقة ، وكانت نتيجتها المباشرة أن توقف الزحف

النصرانى إلى حين ، وثبتت حدود الإسلام عند خط وادى أنة ، واستعاد المسلمون عدة حصون فى غربى الأندلس ، كما استعادوا قلعة رباح ، واعتزم المنصور أن يتابع نصره ، فيستولى على طليطلة ، لكن دخول الشتاء منعه من ذلك .

لم يحاول المنصور فى غزواته التالية استعادة طليطلة ، وقد كانت الفرصة مهيأة له ، واكتفى بغزوات محدودة لبلاد النصارى ، ثم اكتفى معهم بعد ذلك بهدنة ، ووافاه أجله فى سنة ٥٩٥ / ١١٩٩ ، وكان ما يزال شاباً لم يبلغ الأربعين بعد .

(٥) الناصر والعقاب :

ولى بعد المنصور ولده عبد الله الذى تلقب بالناصر ، وحكم مدةً مماثلةً لمدة حكم أبيه ، ومات مثله شاباً . على أن الناصر لم تتوافر له قدرات أبيه ولا مهاراته العسكرية ، ومع إنه تمكن من القضاء نهائياً على بنى غانية فى الجزائر الشرقية، وسدد لهم ضربات موجعةً فى إفريقية ، إلا أن أذفونش الثامن ملك قشتالة المهزوم فى الأرك ، لم يلبث أن استرد قواه ، وعاود الإغارة على أطراف الأندلس، وكانت الهدنة مع المسلمين قد انتهت مدتها .

كان أذفونش قد اعتزم أن يأخذ بثأر هزيمته فى الأرك ، وأيدته البابوية ، كما أيدته الممالك الإسبانية ، وأتاه صليبيون من أنحاء أوربا كافة ، فاجتمع له جيش كامل العدة يناهز المائة ألف .

يقول عبد الواحد ـ وهو مؤرخ معاصر ـ « وخرج الأذفنش ـ لعنه الله ـ إلى قاصية الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان ، حتى بلغ

نفيره القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى لعنه الله ! » .

خرج أذفونش من طليطلة ، واستولى فى طريقه على قلعة رباح ، وارتد قائدها الأندلسى ابن قادس ليلحق بسيده الناصر ، حيث كان مصيره القتل .

كان لقتل ابن قادس أثره السيئ فى الأندلسيين الذين كانوا يشكلون ميمنة المسلمين ، وكانوا أعرف من سائر المسلمين بغير المسلمين .

تحرك الناصر بجيشه الكبير الذى ربما وصل عدده إلى المائتى ألف من إشبيلية فى اتجاه جيان ، وعسكر فى سهل مجاور لها تكتنفه تلال صخرية (عقاب) ، ويعرف هذا السهل بالعقاب ، وقربه قرية تدعى تولوسا ، لذا دعيت المعركة عند الإسبان Las Navas de Tolosa .

صباح الاثنين ١٥ من صفر ٦٠٩/١٦ من يوليو ١٢١٢ م بدأت معركة العقاب بهجوم شنه النصارى على مقدمة جيش المسلمين ، وقد ثبت لهم هؤلاء ، ثم ارتدوا بعد أن فشا القتل فيهم ، لكن النصارى لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى قلب الجيش ، وفى الوقت نفسه فإن ميمنة المسلمين وميسرتهم ردتا جناحى الجيش النصرانى ، وبدأ النصارى فى الفرار ، ولاح أن النصر فى جانب المسلمين .

عندما شاهد أذفونش جنوده يفرون ، الدفع بنفسه ومعه قواته الإحتياطية ، ليقاتل قتال اليائس ، فانتظمت صفوف النصارى ، وركزوا فى هجومهم على القلب ، واندفعوا ناحية الحرس الخليفى ، وحمى وطيس القتال ، ورغماً عن صمود الخليفة وشجاعته ، ورغماً عن تفانى حرسه الأسود فى الدفاع عنه ، إلا إنه لم يجد مندوحةً من الفرار إلى جيان ، بينما فلول جيشه تفر إلى كل ناحية ،

وأخذ النصارى يمعنون القتل فيهم ، إذ كان شعارهم أن لا أسرى ، وقبل أن تغيب شمس هذا اليوم كانت المعركة قد حسمت نهائياً لصالح النصارى .

كانت الهزيمة شديدةَ الوقع على المسلمين ، فعشرات الآلاف هلكوا فى العقاب ، يؤيد ذلك ما يذكره مؤرخ عاش فى فترة قريبة من زمانها ، فيقول إن الإنسان كان يتجول فى بلاد المغرب بعد المعركة ، فلا يجد شاباً واحداً قادراً على القتال ، وكانت صدمةُ الناصر شديدةً لهزيمة لم يتوقعها ، ووافاه أجله بعدها بشهور .

يقول شاعر أندلسى عاصر هذه الهزيمة :

وقائلةٌ أراك تطيل فكراً ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر فى عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب

فما فى الأرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب

كان لمعركة العقاب أثرها السلبى المباشر فى بلاد المغرب والأندلس معاً ، ففى المغرب ، انقسم الموحدون على أنفسهم ، وكثر عدد المطالبين بالخلافة منهم ، وتحاربوا بعضهم ضد بعض ، واستغرقت هذه العملية سنوات طويلة ، أفضت فى النهاية إلى سقوط الدولة الموحدية فى سنة ٦٦٨ / ١٢٦٩ ، وقامت على أنقاضها دول ، أهمها دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى ، ودولة بنى حفص فى إفريقية .

أما عن الأندلس ، فإن النصارى لم يتوانوا فى استثمار الفرصة التى واتتهم بهزيمة المسلمين المروعة فى العقاب ، ثم شغل الموحدين بنزاعاتهم الداخلية ، وأخذت العواصم والمدن الأندلسية تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى أيدى النصارى ، وكانت قمة المأساة دخول فرذلند الثالث ملك

قشتالة (١٢٥٢/١٢١٧م) الملقب ـ بعد ـ بالقديس قرطبة في ٢٢ من شوال ٦٣٣/ ٢٩ من يونيو ١٢٣٦ .

كانت المأساة رهيبةً ، لأن النصارى دخلوا غالب هذه المدن بالأمان وغالبًا ما نقضوه ، أو إنهم رفضوا أمانها بعد أن ألحت فيه ، وترتب على ذلك هلاك عشرات الآلاف من المسلمين وتهديم دورهم ومساجدهم وتحويلها كنائس وسبيهم ، وملأ النصارى بلادهم وما وراء بلادهم بنسائهم وأولادهم ؛ فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة » كما يقول عبد الواحد .

تنتمي إلى هذه المرحلة المحزنة من تاريخ الأندلس رائعة ابن الأبّار التي يخاطب فيها سلطان تونس الحفصي وأولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وكذا رائعة الرُّندي (ت ٦٨٤هـ) وأولها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

الفصل الرابع عشر

مملكة غرناطة والموريسكيون(*)

1 ـ مملكة غرناطة :

كانت مهمة التصدي للزحف النصراني ـ وقد تخلى الموحدون عن الأندلس ـ من شأن أهل الأندلس أنفسهم ، وبرز على الساحة زعيمان عربيان هما محمد بن يوسف بن هود الجذامي الملقب بالمتوكل ، ومحمد بن يوسف ابن نصر الأنصاري الملقب بالشيخ ، ولم يمهل القدر أولهما سوى سنوات قليلة ، ثم انتهت حياته بأن اغتاله بعض أصحابه في سنة ١٢٣٦/٦٣٣ ، أما الآخر ويعرف أيضًا بابن الأحمر ، ويرتفع نسبه إلى سعد بن عُبادة رضي الله عنه ، فإنه جعل معقله مدينة غرناطة التي دخلها في سنة ١٢٣٨/٦٣٥ وحصنها ، وأتته أجناد من أنحاء الأندلس ، وامتدت سيطرته إلى مدن مجاورة ، وبعد سقوط قرطبة دخل في ولاء ملك قشتالة ، وصار في جملة أتباعه يؤدي جزيةً سنويةً قدرها مائة وخمسون ألف قطعة ذهبية ، ويشهد اجتماع الكورتيس Cortes (البرلمان) ويسلّم بعض المدن والمواقع على حدود دولته ومنها جيان ، وعلى ذلك أعان ابن الأحمر سيده القشتالي في الاستيلاء على إشبيلية وغيرها من قواعد الغرب في سنة ١٢٤٨/٦٤٦ .

وإذا كان ابن الأحمر قد عدل أحيانًا عن مصانعة النصارى ، وتحالف مع بني مرين خلفاء الموحدين في المغرب الأقصى ، فإنه عاود مرة أخرى مصانعتهم

(*) معتمدنا الأساسي في كتابة هذا الفصل على المؤرخ الكبير الراحل محمد عبد الله عنان في كتابه الهام « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو العصر الرابع من موسوعته الكبيرة « دولة الإسلام في الأندلس » .

وتنازل عن مزيد من الأراضى فى غربى الأندلس ومنها شريش .

انصرف ابن الأحمر فى سنوات عمره الأخيرة إلى تنظيم مملكته الصغيرة ، وكانت قد اكتظت بسكانها الذين هاجروا بعضهم إليها من القواعد الأندلسية الذاهبة ، ومات فى سنة ١٢٧٢/٦٧١ .

كانت مملكة غرناطة تقع إلى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة ، وراء نهر الوادى الكبير ، وتخترقها جبال الثلج Sierra Nevada الشاهقة ، وهضاب البُشرّات Alpujarras الوعرة ، كما تخترقها عدة أنهار ، أهمها نهر شَنيل Jenil وهو فرع الوادى الكبير . وتهيأت لها موارد طبيعية مناسبة ، أعانت على ازدهارها ، فتوافد إليها مهاجرون مسلمون من مدن أندلسية أخرى ، وعاشت فيها - ربما - أقلية نصرانية من المستعربين ، إلى جانب عدد من اليهود. ومع صغر حجم هذه المملكة ، إلا أنها كانت تضم زهاء مليونين ، يتباهى عامتهم بأصولهم العربية ، وإن كان فى هذه المباهاة قدر كبير من المبالغة، أما الأجناد فالكثرة الظاهرة فيهم كانوا من البربر ، وخاصة بنى مرين .

أما العاصمة وهى غرناطة ، فكانت فيما سلف من عصور من أعمال كورة إلبيرة ، نزلها جند دمشق إبان حركة الاستقرار العربى بعد الفتح ، وفى مرحلة سقوط الخلافة الأموية خربت مدينة إلبيرة ، وأضحت غرناطة قاعدة الكورة ، ولم يلبث أن غلب اسمها على الكورة ذاتها .

وغرناطة مدينة أزلية ، يذهب البعض إلى أن اسمها مشتق من الكلمة اللاتينية Granata وتعنى رمانة ، وذلك لكثرة حدائق الرمان بها ، وتقع فى واد عميق ، يمتد من جبال الثلج ، ويحدها من الجنوب نهر شنيل ، ويخترقها فرعه المسمى حَدَرّه El - Darro ، وتشرف المدينة من جنوبها الغربى على المرج أو الفحص الشهير La Vega الذى يمتد غرباً حتى مدينة لَوْشة Loja . ويذكر

ابن الخطيب (١٣٧٤/٧٧٦) أن أحوازها كانت تضم ثلاثمائة قرية يقطن بها الألوف ، ويعنى ذلك أن سكانها ربما وصل عددهم إلى النصف المليون .

فى شرقى المدينة تقع الحمراء Alhambra وهى دار الملك ، وأبرز ما تبقى من معالم غرناطة الإسلامية ، وإلى شماليها يقع حى البيازين (أو البياسين) Albaicín ، وعلى مقربة من الحمراء يقع قصر جنة العريف El Generalife ، وكان مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين غرناطة .

كانت مملكة غرناطة هى رابعة القوى السياسية فى شبه الجزيرة الإسبانية بعد ممالك قشتالة وأرغونة والبرتغال ، (تليها مملكة نبرة) ، وشغلت مساحة تقدر بعشر مساحة البلاد ، ورغماً عن إنها كانت أضعف هذه الممالك ، إلا إنها عاشت عمراً مديداً (١٢٣٨/٦٣٥ - ١٤٩٢/٨٩٧) . والسبب الحقيقى لامتداد عمر هذه المملكة كان يكمن فى النزاعات بين الممالك النصرانية الثلاث ، وفى النزاعات داخل المملكة الأساسية قشتالة ، وكانت غرناطة تتدخل أحياناً فى هذه النزاعات ، وتناصر فريقاً ضد فريق آخر .

تحددت سياسة مملكة غرناطة فى مصانعة مملكة أرغونة ، وهى المنافس الرئيسى لمملكة قشتالة ، كما تحددت أيضاً فى التحالف مع بنى مرين سلاطين المغرب الأقصى ، واحتكرت أسرتهم مشيخة الغزاة ، زهاء قرن من الزمان ، لكنها كانت تنزع أحياناً إلى التخلى عنهم ، ومصانعة مملكة قشتالة ، عندما تستبد بها المخاوف منهم .

خلال المائة العام الأولى من تاريخ مملكة غرناطة تبادلت ومملكة قشتالة النصر والهزيمة ، وفى سنة ٦٧٤ / ١٢٧٥ استطاع المسلمون المتحدون ، - غرناطيين ومرينيين - بقودهم أبو يوسف يعقوب أن يحرزوا نصراً كبيراً على أعدائهم فى وقعة قرب مدينة إستجه ، وقتل الدون نونيودى لارا Don Nuño

González de Lara المعروف عنه المسلمين بدُنونة ومعه عدة آلاف من أصحابه، جمعت رءوسهم ، وأذن عليها للصلاة ، وقد أعادت هذه المعركة ذكريات معركتي الزلاقة والأرك .

جدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب (١٢٦٩/٦٦٨ ـ ٦٨٥ / ١٢٨٥) عبر إلى الأندلس ثلاث مرات بعد ذلك (١٢٧٨/٦٧٧ ـ ١٢٨٢/٦٨١ ، ١٢٨٥/٦٨٤) وأحرز انتصارات مشابهة ، بل إن أذفونش العاشر ملك قشتالة المعروف بالعالم El Sabio (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤م) طلب عونه ضد بعض ولده ، واستقرت في مملكة غرناطة قوة من بني مرين تلقب قائدها بشيخ الغزاة ، ونهضت هذه القوة بدور كبير في حفظ هذه المملكة والدفاع عنها .

على أن القشتاليين عاودوا الكرة بعد سنوات ، وسقطت في أيديهم جزيرة طريف في سنة ٦٩١ / ١٢٩٢م ثم جبل طارق في سنة ٧٠٩/١٣٠٩ ، وتطلعوا إلى الاستيلاء على غرناطة نفسها في سنة ٧١٨/١٣١٨ ، إلا أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم ، وقتلوا دون بطرة Don Pedro الوصي على أذفونش الحادي عشر (١٣١٢ ـ ١٣٥٠م) وتبع ذلك غزوات إسلامية أسفرت عن استرداد الغرناطيين لجبل طارق في سنة ٧٣٣/١٣٣٣ ، وكان لعون بني مرين وسلطانهم أبي الحسن أكبر الأثر في تحقيق هذا النصر .

كان وقع الهزيمة كبيراً على القشتاليين ، فعاود ملكهم العيث في أراضي مملكة غرناطة ، ووافته أمداد من البرتغال وأرغونة ، وهرع أبو الحجاج يوسف سلطان غرناطة (٧٣٣/١٣٣٣ ـ ٧٥٥/١٣٥٤) يطلب عون أبي الحسن سلطان المغرب ، فعبر بنفسه إلى الأندلس في سنة ٧٤١/١٣٤٠ صحبة جيش كبير ، لكن المسلمين المتحدين ـ أندلسيين ومغاربة ـ أصيبوا بهزيمة كبيرة عند

نهر سالادو El Río Salado في الواقعة المعروفة بوقعة طريف، هي أكبر هزائمهم منذ العقاب .

ترتب على هذه الهزيمة أن سقطت الجزيرة الخضراء في سنة ٧٤٤/١٣٤٤ في أيدي القشتاليين ، مما أهم أذفونش في سنة ٧٥٠/١٣٤٩ للاستيلاء على جبل طارق ، فيقطع طريق المواصلات بين العدوتين ، وحاصره عاماً كاملاً ، بحيث كاد يسقط في يديه ، لولا أن فشا الوباء الكبير (الموت الأسود) في معسكره ، وهلك الملك نفسه ، واضطر القشتاليون إلى رفع الحصار .

وصلت مملكة غرناطة إلى ذروة مجدها في النصف الأخير من القرن الثامن/ الرابع عشر ، وسادت حال من الاستقرار على حدودها ، بل إن غرناطة أفادت من الحرب الأهلية داخل قشتالة ، فوقف المسلمون مع بطرة (بدرو القاسي) ملكها (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩م) ضد أخيه إنريك ، وشارك ابن خلدون في هذه الاتصالات مبعوثاً من سلطان غرناطة ، وانتهز محمد الغني بالله (٧٥٥/١٣٥٤ ـ ٧٩٣/١٣٩١) هذه الفرصة وزحف بجيشه في سنة ٧٦٨/١٣٦٧ فعاث في أحواز إشبيلية وهي عاصمة قشتالة ، واقتحم مدينة جيان، وإن لم يضمها إلى ملكه لصعوبة الدفاع عنها ، واسترد في العام التالي الجزيرة الخضراء ، واحتفظ بها عشر سنوات ، ثم أعادها إلى النصارى بعد ما هدم ما بها من دفاعات .

امتدت فترة الهدوء هذه على نحو أو آخر حتى أواسط القرن التاسع / الخامس عشر ، ثم سقط جبل طارق للمرة الثانية والأخيرة في سنة ٨٦٧/١٤٦٢ .

خلال عصر مملكة غرناطة استمر عطاء الأندلسيين الحضاري يتدفق ، كما

كانت الحال قبل ذلك ، على أن هذا العطاء فى معظمه تجدد فى فن العمارة ، لولع الأندلسيين بإبتناء القصور والمساجد والمدارس والقلاع وأبرزها جميعاً قصور الحمراء ، كما تجدد فى الأدب وخاصة الشعر ، ولا نشاهد آثاراً واضحة فى العلوم العقلية والطب .

وأشهر شعراء غرناطة فى الصدر الأول هو أبو الطيب صالح بن شريف الرندى (ت٦٨٤هـ) ويعرف بخاتمة أدباء الأندلس ، وذاع صيت قصيدته النونية فى عصره وما تلاه من عصور . وينتمى إلى هذه المرحلة أيضاً أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت٧٠٨ / ١٣٠٨) وقد خلف كتاب « صلة الصلة» الذى ألفه ذيلاً على كتاب « الصلة » لابن بشكوال (ت٥٧٨/١١٨٢) .

بلغت الحركة الفكرية ذروتها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى أى فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن إسماعيل ، وعهد ولده محمد الغنى بالله . وفى هذه المرحلة ، صعد نجم لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب السلمانى (ت ٧٧٦/١٣٧٤) الذى كان وزيراً وكاتباً لثلاثة من سلاطين غرناطة ، كما كان صديقاً للمفكر الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، وتقلبت حياته بين سعود ونحوس ، إلى إن حبس ثم قتل بتهمة الزندقة ، وأحرقت جثته ودفن قرب فاس فى بلاد المغرب .

ويعد ابن الخطيب واحداً من الشخصيات الكبيرة فى الفكر الأندلسى ، وكان كاتباً وشاعراً مؤرخاً وطبيباً وفيلسوفاً ، واشتهر من كتبه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » و « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » و « أعمال الأعلام » .

كان من عمد هذه النهضة كذلك أبو طالب عبد الله بن زمرك (ت٧٩٧/١٣٩٥) وهو شاعر وكاتب كان تلميذاً لابن الخطيب ، ثم صار

أكبر الساعين فى نكبته ولقى - بعد - مصيراً كمصير أستاذه .

ومن هؤلاء برهان الدين إبراهيم بن فرحون اليعمرى (ت٧٩٩/١٣٩٧) وهو فقيه ومؤرخ ، وأهم كتبه « الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب » وهو تراجم للمالكية ، وكذا أبو الحسن على بن عبد الله النباهى (ت أواخر القرن الثامن) وله تاريخ القضاء المعروف « بالمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » .

وآخر الشخصيات الكبيرة فى الفكر الأندلسى هو أبو بكر محمد بن عاصم القيسى (ت٨٣٩/١٤٣٦) ، وقد برع فى النحو والمنطق والبيان والفقه ، وولى قضاء الجماعة ، كما ولى الوزارة ، وكان شاعراً يعرف بابن الخطيب الثانى ، وأهم كتبه « حدائق الأزهار » .

فى النصف الأخير من القرن التاسع / الخامس عشر ضعفت الحركة الفكرية فى مملكة غرناطة ، خصوصاً بعد أن بدا فى الأفق نذير سقوطها ، فهجرها العديد من أبنائها المتميزين ، وغادروها إلى بلاد المغرب ومصر والشام ، ولم يعودوا إليها بعد مغادراتهم لها .

خلال هذه المرحلة ضعف أمر مملكة غرناطة ، بسبب النزاع على العرش داخلها ثم افتقادها الظهير المغربى بضعف دولة بنى مرين ، ثم ذهابها فى سنة ٨٦٩/١٤٦٤ ، ولم يكن خلفاؤها من بنى وطاس من القوة ، بحيث يستطيعون عون مملكة غرناطة . على أن الأهم من هذا كله ما جرى من تطورات فى إسبانيا النصرانية ، ففى سنة ٨٧٩/١٤٧٤ مات إنريكى الرابع ملك قشتالة ، وخلفته أخته إيسابيل Isabel (١٤٧٤ ـ ١٥٠٣) وكانت متزوجة من الأمير فرناندو الأرغونى (١٤٧٩ ـ ١٥١٦) وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أرغونة ، ثم اتحدت المملكتان الإسبانيتان ليبدأ عصر جديد فى تاريخ إسبانيا .

فى هذا الإبان كانت الحرب الأهلية قد دبت فى مملكة غرناطة بين سلطانها أبى الحسن على الملقب بالغالب بالله (٨٦٧/١٤٦٢ - ٨٩٠/١٤٨٥) وبين أخيه أبى عبد الله محمد الملقب - بالزغل - (أى الباسل) وانقسمت المملكة بين الأخوين ، فاختص أبو الحسن بغرناطة ، واختص الزغل بمالقة .

بيد أن السلطان أبا الحسن اتجه إلى حرمان ولده أبى عبد الله محمد من وراثته لصالح ولد له من جارية إسبانية الأصل تدعى ثريا ، وثار أبو عبد الله على أبيه بدعم من أمه الحرة عائشة ، وانتهزت القشتاليون الفرصة ، واستولوا على بعض أطراف المملكة ، واشتعلت الثورة فى غرناطة ، وفر السلطان إلى مالقة ، حيث يقيم أخوه الزغل ، وجلس أبو عبد الله مكان أبيه فى سنة ٨٨٧ / ١٤٨٢ .

استطاع الزغل أن ينقذ مالقة ، حين هاجمها القشتاليون فى سنة ٨٨٨/١٤٨٣ ، ونهج ابن أخيه النهج نفسه ، بل إنه غزا قشتالة ، لكنه أخفق فى غزوته وهزم وأسر ، واستدعى أهل غرناطة أباه ، ليعاود الحكم ، لكنه كان قد طعن فى السن ، فتنازل عن العرش لأخيه الزغل ، ومات فى سنة ٨٩٠/١٤٨٥ .

أطلق القشتاليون سراح أبى عبد الله ، مقابل الطاعة وأداء الجزية ، وتسليم عدد من المدن والحصون ، وعاودت الحرب الأهلية سيرتها بينه وبين عمه الزغل ، وانقسمت المملكة فصارت غرناطة وأعمالها لأبى عبد الله ، وصارت وادى آش Guadix وأعمالها للزغل .

أفاد القشتاليون من هذه الفرصة فاستولوا على لوشة ، ثم زحفوا إلى مالقة ، ولم يستطع الزغل فى مستقره بوادى آش أن ينجدها ، وبعث - على غير طائل

- يطلب العون من إخوانه المسلمين فى فاس والقاهرة واسلامبول ، ولم تلبث مالقة أن سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٨٩٢/١٤٨٧ وأتبعوها بالمُنكَّب Almuñecar وبَسْطة Baza ولم يتبق سوى وادى آش ، فلم يجد الزغل بداً من الاستسلام والرحيل إلى المغرب ، وبرحيله دخل النصارى وادى آش ودخلوا بعدها ألمرية .

ظهر فى مملكة غرناطة فى عهدها الأخير تياران قوى ينحو نحو طلب العون من السلطنة المملوكية بالقاهرة ، والسلطنة العثمانية بإسلامبول ، وقد تكرر هذا الطلب عدة مرات ، ولم تجاوز الإستجابة حد القول إلى الفعل .

بعد أن تخلص الملكان الكاثوليكيان من خصمهما الزغل ، لم يتبق لديهما سوى مدينة غرناطة وأحوازها ، وكان يدافع عنها عشرون ألفاً من المقاتلة يواجهون ما بين خمسين ألفاً إلى ثمانين ألفا من أعدائهم مزودين بالمدافع وآلات الحصار .

شرع فرناندو بدوره فى تخريب حقول البشرات وفحص غرناطة ، ومنع الأقوات عن المدينة ، وبنى ازاءها مدينة دعتها إيسابيل شنتفى Santa fé أى « الإيمان المقدس » ، ومنعت سفن النصارى الأمداد الواردة من المغرب .

بدأ حصار غرناطة فى ١٢ من جمادى الثانية ٨٩٦/٢٣ من إبريل ١٤٩١ وطال عدة شهور ، ولم يعد لدى المسلمين جلد على مجاهدته ، وعرض النصارى معاهدة تضم ستاً وخمسين مادة ، وصل إلينا نصها العربى ، كما وصل إلينا نصها القشتالى ، والروح العامة لهذه الوثيقة طيبة ، فهى تنص على بقاء المسلمين على حالهم التى كانوا عليها ، وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملة وألا يؤدوا من الأموال ، إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم ، وأن يسيروا

وفق شرائعهم ، وسمح لمن أراد بالعبور إلى المغرب بأولاده وأمواله ، وذيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان هذا العهد ، ويضمنانه بدينهما وشرفهما الملكي .

لما عرض هذا الإتفاق على أهل غرناطة استقبلوه بوجوم ، على أن المعارضة التي كان يتزعمها موسى بن أبي الغسان ـ وقد استشهد فيما بعد ـ كانت محدودة . وفي ٢ من ربيع الأول ٨٩٧/ ٢ من يناير ١٤٩٢ دخل الملكان الكاثوليكيان المدينة ، ونصب صليب قضى كبير على برج الحراسة Torre de la Vela ، وهو أعلى الأبراج بقصر الحمراء ، ورفعت إلى جواره راية القديس يعقوب وراية قشتالة ، وانطلق الرهبان يرددون « الحمد لله » Te Deum Laudamus .

غادر أبو عبد الله وأمه الحرة عائشة مدينته إلى البشرات ، ولدى أحد آكامها نظر إلى غرناطة ، وأجهش بالبكاء ، فقالت له أمه : « أجل فلتبك كالنساء ملكاً ، لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » ، وقد دعيت هذه الأكمة فيما بعد بزفرة المسلم الأخيرة El Último Suspiro del Moro .

استقر أبو عبد الله ـ الذي دعاه الإسبان بـ Boabdil والملك الصغير El-Rey Chico ـ استقر بقرية أندرش Andarax وكان فرناندو قد أقطعها له ، ولم يتهيأ المقام بها سوى عام وبضع العام ، ثم عبر إلى المغرب ، فقصد مليلة ثم فاس ، حيث عاش إلى أن مات في سنة ٩٤٠/١٥٣٤ ، وقد تدهورت الحال بولده بعده ، وصاروا في زمن المقري (ت١٠٤١/١٦٣٢) أي بعد مائة عام أو نحوها ، يعيشون على أموال الصدقات .

2 ـ الموريسكيون :

معلوماتنا عن حال المسلمين في المصادر الغربية بعد سقوط غرناطة قليلة ، ولا يتوافر لدينا سوى كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » الذي يعود إلى سنة ٩٤٧/١٥٤٠ ، أي بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، وهو كتاب صغير ، ينسب إلى كاتب مجهول من أشراف غرناطة ، أرغم على التنصر ، ثم هرب إلى المغرب ، ولدينا أيضاً إشارات في كتاب المقري « أزهار الرياض » .

والسبب في عدم توافر المصادر الغربية ، هو خمود الحركة الفكرية في العصر الغرناطي الأخير ، فضلاً عن دثور الكتب التي تعود إلى هذا العصر وما تلاه ، نتيجة للسياسة الإسبانية ، وخاصة الكنسية منها تجاه المسلمين .

في أعقاب تسليم غرناطة ، ظهر تيار بين المسلمين ، يتوجس من غد غير مأمون ، فشرع بعضهم في بيع أراضيه وعقاراته ، والرحيل إلى المغرب ، وقد ارتحل برحيل أبي عبد الله ألف وثلاثمائة مسلم ، استقر معظمهم في تطوان .

كانت السياسة الإسبانية مترددة تجاه المسلمين ، فكانت الدولة ترى فيهم وكانوا يشكلون نحو عشرين في المائة من سكانها ، أكثر هؤلاء السكان نشاطاً وأوفرهم حضارة ، في حين أن الكنيسة كانت تراهم كفاراً ، يجب تنصيرهم وإلا فالقتل أو الاسترقاق أو النفي .

إنصاعت الدولة لتحريض الكنيسة بعد سبع سنوات فقط ، ففي سنة ٩٠٤/١٤٩٩ استدعى الملك فرناندو الكردينال خمينيث دي ثيسنيروس Francisco Jiménez de Cisneros مطران طليطلة (ت١٥١٧م) إلى غرناطة ، فبدأ بأن جمع فقهاء المدينة وأعيانها وأغدق عليهم ، واستطاع بالحسنى أن ينصر

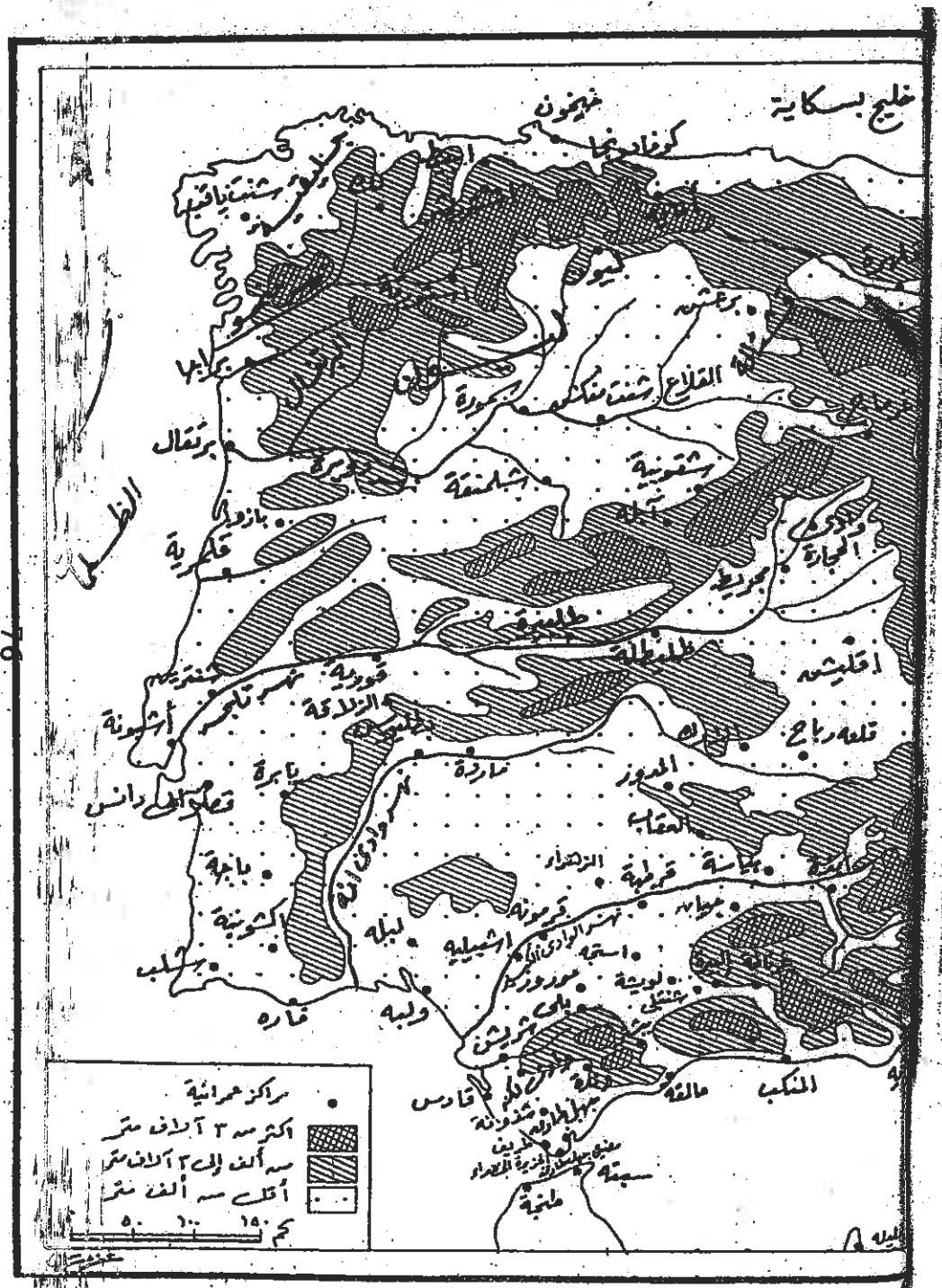

خليج بسكاية
كوفادونجا
خيخون
برتقال
بازو
قلمرية
أشبونة
شنترين
نهر تاجه
الزلاقة
قورية
طلبيرة
طليطلة
وادي الحجارة
مجريط
إقليش
قلعة رباح
المدور
العقاب
ماردة
نهر وادي آنه
يابرة
باجة
شلب
فاره
لبلة
اشبيلية
قرمونة
قرطبة
الزهراء
جيان
استجة
لوشة
قادس
ملقة
المنكب
سبتة
طنجة
مراكز عمرانية
أكثر من ٣ آلاف متر
من ألف إلى ٣ آلاف متر
أقل من ألف متر
كم
٥٠ ١٠٠ ١٥٠
برشلونة
طركونة
طرطوشة
بلنسية
شاطبة
دانية
لقنت
أوريولة
مرسية
قرطاجنة
المرية
سرقسطة
وشقة
لاردة
جرندة
أربونة
سبتمانيا
تولوشة
منورقة
ميورقة
يابسة
فرمنتيرة
الجزائر الشرقية
(البليار)
بحر الروم
وهران
أقل من ألف متر
٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠

إسبانيا